

الثَّقَافَةُ

مجلة شهرية فكرية جامعة تصدر في دمشق

- تأسست عام ١٩٥٨ م -

ذي القعدة ١٤٣٠ هـ
تشرين الثاني ٢٠٠٩ م

الثقافة

أدبية فكرية جامعة

تصدر شهرياً في دمشق تأسست عام ١٩٥٨

مؤسسها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE
FONDATEUR ET REDACTEUR
EN CHEF DE LA REVUE

AL THAKAFA

ص . ب : / ٢٥٧٠ /

هاتف : ٢٣٢٣٠٦١

فاكس : ٢٣٢٠٨٨٧

دمشق

P.O. BOX: 2570

TEL: 2323061

E-Mail: AndreeKara@Mail.sy

هيئة المستشارين :

د. عبد اللطيف اليونس

د. عمر النص

د. سمر روجي الفيصل

د. طلعت الرفاعي

أ. فيصل العظيمة

أ. عبد الكريم ناصيف

أ. جابر خير بك

أ. عصام الحلبي

أ. عيسى فتوح

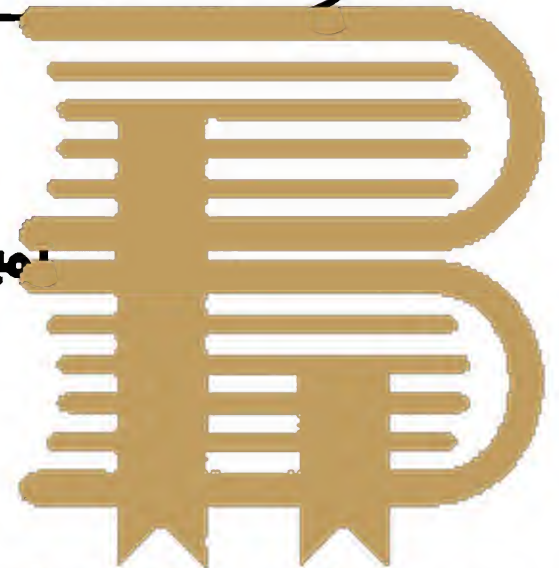
أ. فهد صالح المهنا

شبكة كتب الشيعة

مينة التحرير : سكينة عكاش الغبرة

ذي القعدة ١٤٣٠ هـ

تشرين الثاني ٢٠٠٩ م



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب العدد

٣	عيسى فتوح	أدب الأطفال في سورية
١٦	د. عمر النص	السؤال الأخير..
١٨	د. فخر الدين قباوه	اللغة العربية الفصحى
		أسباب انحدارها وعوامل النهوض بها
٢٣	عبد الحميد علي	يا شاعر العرب
٢٦	أحمد الخوص	البنفسج
٣٠	د. سعاد الصباح	افتراضات..
٣٣	علي إسماعيل السليمان	قصة: رجل الحاوية
٤١	نظير جابر	سلي الفوارسُ عني
٤٤	فاضل السباعي	إنطاق التاريخ الأندلسي الجميل
٥٣	عصام شعبان	أحبك الحب..
٥٤	عبير كامل إسماعيل	قصة: مسيرة للحزن
٥٧	زياد الجزائري	حب قدره الرب..
٥٩	يوسف عبد الأحد	الدكتور كاظم نجيب الداغستاني
٦١	حسن عدنان قداح	الحبيب الثاني..
٦٢	د. مصطفى العدوي	يوسف عليه السلام مفسر للأحلام

ظهرت كتب الأطفال، أول ما ظهرت، في القرن السابع الميلادي باللغة اللاتينية، وكان هدفها تعليم الدين ومبادئ الكتابة، لكن أدب الأطفال لم يتقدم بخطا سريعة إلا بعد اختراع المطبعة. ففي عام ١٤٨٤ طبع كاكستون أول كتاب للصغار، وهو خرافات وأمثال الحكيم اليوناني ايزوب... وحتى نهاية القرن الخامس عشر لم يكن هناك إلا كتيبات أغان، ووصف ألعاب للحفلات. ثم ظهرت الألواح، وهي صحف ملصقة على خشب في إطار من قرن الخرتيت، ولذلك عرفت بكتب القرن، وهي عبارة عن الأحرف الأبجدية والأرقام والصلوات ليتعلمها الصغار، ثم أصبحت من الكرتون، وأخيراً من الورق، وظلت تضاف إليها مواد أخرى غير تعليمية حتى القرن الثامن عشر الذي شهد نهضة في تأليف كتب الصغار وطبعها. ويعد جون نيوبيري، المؤلف والناشر، أول من أصدر كتباً مصورة للأطفال على ورق ممتاز، وبالرغم من أن بعض قصص شكسبير، ورحلات غوليفر، وروبينسون كروزو أعدت في طباعات خاصة للصغار، إلا أن الهدف منها كان تعليمياً.

وفي أواخر القرن الثامن عشر، وبفضل ظهور كتاب "إميل" لجان جاك روسو، ونظريات جون لوك في التعليم ازدهرت مدرسة ممتازة لإنشاء كتب تعليمية، بالغت في هذا المجال، ولمعت أسماء مؤلفين معروفين مثل ماريادجورث، ووليم بليك الذي ألف كتاب "أغاني البراءة والتجربة" وأجرى الحكمة فيه على لسان الأطفال.

١٠٠ بعد القرن التاسع عشر، ولا سيما نصفه الثاني، العصر الذهبي لأدب الأطفال، إذ عكف الأخوان غريم على جمع القصص الشعبية

أدب الأطفال في سورية

(نشأته وتطوره)

بقلم:

عيسى فتوح

أما الأدب العربي فلم يعرف التأليف للأطفال إلا في زمن متأخر جداً، ولا نكاد نلمح في تاريخه الطويل إلا إشارات عابرة للأطفال، فقد كانوا يعيشون على هامش الأسرة، لأن شظف الحياة كان يصرف الكبار عن العناية بهم، وتوفير الحياة الكريمة لهم، يعيشون في الأسرة كما تعيش الحملان في القطيع، وقد يشتدون في معاملتهم لكي يصنعوا منهم رجالاً قادرين على تحمل الحياة القاسية الصعبة.

إن ما ذكر عن الأطفال في الأدب العربي حتى بداية عصر النهضة الحديثة، لا يتعدى الإشارات العابرة التي تصف مكانتهم في الأسرة، ومحبة الوالدين لهم، وهي إشارات سطحية عارضة لا يمكن أن نعدها من أدب الأطفال في شيء، لأنها وردت في متون القصائد، ولم تكتب خصيصاً لهم، أو توجه إليهم، كقول الشاعر الإسلامي حطان بن المعلى:

وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم
لامتنعت عيني من الغمض

لم تظهر بوادر الكتابة الجدية للأطفال في الأدب العربي إذن إلا في مطلع القرن العشرين وفي مصر بالذات، حينما حاول الشاعر أحمد شوقي نظم خرافات مشهورة على أسنة الحيوانات من ايزوب اليوناني، أو لافونتين الفرنسي أو من كليله ودمنة، أو من مطارح خياله، وقصد منها عظة الحكام، وتهذيب العامة مع شيء من الهزل. قال في مقدمة الشوقيات:

الألمانية مدة ثلاثة عشر عاماً، كما ظهرت مجموعة أخرى بالألمانية في سويسرا بعنوان "الأسرة السويسرية روبنسون" عام ١٨١٣، ثم كتب القاص الدانماركي هانس كريستيان أندرسون طائفة كبيرة من القصص، استلهم بعضها من الأدب الشعبي، وبعضها الآخر من حكايات كتاب "ألف ليلة وليلة"، ونشر الكاتب الإنكليزي روبرت لويس ستيفنسون قصة رومانسية تدعى "جزيرة الكنز" على حلقات في مجلة الأطفال، ولما جمعها في مجلد واحد لاقت رواجاً كبيراً. ولا يجوز أن نغفل في هذا المقام العمل الذي قام به تشارلز وماري لام اللذان لخصا جميع قصص ومسرحيات شكسبير، وأعداها إعداداً جيداً للأطفال.

وفي القرن التاسع عشر دخل هذا الميدان عدد من أشهر الكتاب والمؤلفين مثل: تشارلز ديكنز، وجون رسكين، ورديارد كبلنج، وليون تولستوي... وظهرت كتب ملونة، وتخصص الفنانون في رسوم الأطفال لتزيين الكتب الموجهة لهم، وتنافسوا في حسن الإخراج، وجمال التنفيذ والتغليف. وما إن أطل القرن العشرون حتى كان في وسع الأطفال أن يطوفوا العالم، ويجوبوا البحار، ويحلقوا في السماء، ويعرفوا أسرار العلوم الدقيقة بواسطة كتبهم المبسطة المشوقة.

واتسع الأفق فأصدرت لهم المجلات المتخصصة، وأنتجت الأفلام الملونة الرائعة، وأخذ الأطفال في كل بقعة من بقاع العالم يتعارفون من خلال قصصهم وحكاياتهم، وأنشئت لهم الهيئات والمؤسسات التي تغني بأدبهم، كما عقدت عدة مؤتمرات لتطوير تأليف كتبهم، وإخراجها بشكل جذاب وأنيق.

"وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب
لافونتين الشهير... وكنت أتمنى لو وفقتي الله،
لأجعل لأطفال المصريين مثل ما جعل الشعراء
للأطفال في البلاد المتمدنة، منظومات قريبة
المتناول، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها
على قدر عقولهم". ولا ريب في أن مغزى
بعض هذه الحكايات سياسي، يرمي إلى انتقاد
الحكام، أما بعضها الآخر فيرمي إلى أغراض
اجتماعية... فحكاية "ملك الغربان وندور
الخادم" تمثل الرجل القوي المغرور بنفسه، لا
يريد أن يسمع نصيحة من هو أقل منه قوة، ثم
إنه يقع في مأزق يحتاج إلى مساعدة الذين
نصحوه بالأمس، فإذا هم عاجزون عن
مساعدته، بعد أن فانت الفرصة، أو شامتون
به.

أما حكاية "الديك والثعلب" فيدور مغزاها
على الماكر الذي يريد أن يخدع الناس، ولكن
يظل بينهم من لا تنطلي الحيلة عليه، يقول
فيها:

بـرـز الثـعلـبُ يـومـاً
فـي ثـيـاب الواعظينـا
فـمـشـى فـي الأـرض يـهـدي
وـيـسـبُ الماكرينـا
فـأتى الـسـديـك رسـول
مـن إـمـام النـاسـكـينـا
عـرض الأـمر عـلـيـه
وـهـو يـرجـو أن يـلـيـنـا
فـأجـاب الـسـديـك عـذراً
يـسـا أـضـل المـهـتـديـنـا
بـلـغ الثـعلـب عـنـي
عـن جـودـي الصـالحـينـا
أنـهـم قـالـوا وخـيـرُ الـ
قـول قـول العارفينـا:

مخطئ من ظن يوماً
أن للثعلب ديناً

ومن حكاياته الجميلة حكاية "اليمامة
والصياد"، وهي تمثل الغبي الثرثار الذي يمكنه
أن ينجو مما يحيط به من أخطار إذا ظل ساكناً،
لكنه يتكلم فيلفت إليه أنظار أعدائه ومنافسيه،
فيؤدي ذلك إلى هلاكه:

يـمـامـة كـانـت بـأعـلى الشـجـرة
أـمـنة فـي عـشـها مـسـتـتره
فـأقـبـل الصـيـاد ذات يـوم
وـحـام حـول الـرـوض أي حـوم
فـلم يـجـد للـطـير فـيـه ظـلا
وـهـم بالـرحـيل حـين مـلا
فـبرزت مـن عـشـها الحـمـقـاء
والـحـمـق داء مـالـه دواء
تـقـول جـهـلاً بالـذي سـيـحـدث
"يا أيـها الإنـسان عـم تـبـحـث؟"
فـالتفت الصـيـاد صـوب الصـوت
وـنـحوه سـدد سـهم المـوت
فـسـقطت مـن عـرـشـها المـكـين
ووقعت فـي قبضـة السـكـين
تـقـول قـول عـارـف محقـق
"مـلـكـت نـفـسـي لو مـلـكـت مـنـطقـي"

ولشوقي قصائد تعليمية وتهديبية أخرى
كقصيدته في جدته، وقصيدته في المكتب، لكن
محاولة شوقي تظل صلبة وعرة، يسودها
الجفاف في معظم الأحيان، لأنه كتب للصغار
بلغه الكبار، ونسيجهم وتعبيرهم، ومع ذلك
يبقى الرائد الأول الذي أدرك خطر هذا
الموضوع وجلاله، ودق بابه الموصود جاداً،
ودنا من عالم الأطفال الذي أهمل حقاً طويلة،
فولجه في كثير من المحبة والألفة.

ويحذو حذو شوقي الشاعر المصري محمد
الهرّاوي الذي نظم ثلاثة دواوين صغيرة
مصورة لطلاب المدارس الابتدائية سماها
"سمير الأطفال" كانت الغاية منها تعليم الصغار
الإنشاء والإملاء وتقويتهم في المطالعة،
وتمرينهم على الحفظ، قررتها وزارة المعارف
المصرية في مدارسها عام ١٩٣٠، وقد تحدث
في الجزء الثاني منها عن: الطبيب والمحامي،
والخطيب، والهر المرائي، ومحبة الوالدين،
وحصالة النقود، والساعة، والمذكرة،
والمنظار، والباخرة، والمسرة (الهاتف)، وآلة
التصوير، والحاكي (الفونوغراف)، كما ضمنه
بعض الأناشيد: كأنشودة التلميذ، ونشيد رأس
السنة، والعيد، وشم النسيم، والنيل، وكلها
تخلو من عنصر الحكاية، إلا قصيدة "الهر
المرائي" التي تبين لنا أن المنافق يستحيل عليه
أن يخفي ما يدور في نفسه، فيبدو ذلك جلياً في
مقلتيه اللتين تفضحانه:

جاء "اسماعيل تبعدو
بسمة في شفتيه
حاملاً صحن طعام
ورغيفاً في يديه
فسرى للصحن نفخ
جذب الهر إلى به
قام هـذا وتمطى
ومشى في قدميه
حانني الظهر طروباً
رافع الذيل عليه
فانحني الطفل وألقى
جملة في أذنيه:
"يا صديقي أنا أدري
ما الذي تسعى إليه

عثناً يخفي المرائي
مابداً في مقلتيه"

ولا يختلف الجزء الثالث في شيء عن
الثاني، فقد تحدث فيه عن: الكمنجة، والهدية،
والمحكمة، والشقاق مجلبة الفشل، والشحاذين،
والأهرام، وأبي الهول، ودار الآثار، ودار
الكتب، والتمثيل، والخيالة (السينما)، والآلة
الكاتبة، بالإضافة إلى: نشيد الفلاح، ونشيد
الكشاف، ولم يكن يهدف من وراء ذلك كله إلا
تبصير الطفل بما يحيط به من أشياء وتعريفه
بها، وهي أشبه بدروس تعليمية صرف، لا
تغذي خياله، ولا تشده إليها، لأنها تقريرية
خالية من عنصري القص والتشويق...
وتقتصر على تقديم المعرفة بطريقة مسطحة
جامدة، ولعل قصيدة "الشقاق مجلبة الفشل"
التي تدور حوادثها حلو ثعلبين وفريستهما، هي
القصة الشعرية الوحيدة في الجزء الثالث.
وملخصها أن ثعلبين اقتتلا على فريسة، وادعى
كل منهما أنها له، واشتد الخصام بينهما، حتى
انقض صقر من السماء فحملها وطار بها
بعيداً، فندما وتلاوما، ولكن ما فائدة الندم
والعتاب بعد فوات الأوان؟:

أبأننا محادث
فيماروى من مثل
قال: "أريت ثعلبي
ن من وحوش الجبل
جاءنا فجاء يسعياً
ن لالتماس المأكـل
فأبصرنا فريسة
تسربت من منـزل
فانطلقنا وراءها
وأنشأنا في المقتـل

فَقَالَ كَلِّ لَأَخِي
ه: خَلَّ عَنْهَا فَهِيَ لِي
وَاقْتَنَّا تَلَا وَخَلَّفَا
هِيَ عَرْضَةٌ فِي السَّبِيلِ
فَنَاقَضَ صَقْرٌ وَمَضَى
بِهَا قَرِيرَ الْمُقَلِّ
فَانْتَبَهَ، فَأَبْصَرَ
هِيَ فِي السَّمَاءِ الْأَعَزْلِ
فَنَدَمَ، وَانْقَلَبَ
إِلَى حَدِيثِ الْعَذْلِ
هِيَ لَا يَجِدُهَا
بَعْدَ ضَلَالِ الْأَمَلِ
"إِنَّ الشَّيْءَ دَائِمًا
مَجْلِبٌ لِلْفَشَلِ"

أما قصيدته في "الكمنجة" فلا تخرج عن كونها قصيدة تعليمية، لا تثير في نفس الطفل أي انفعال أو شعور، ولا تحرك فيه ساكنًا، اللهم إلا ما تبعته أنغامها في النفس من الأسى والبهجة، بعد الوحشة والاكتئاب:

أَعَزَّ زَفَّ بِالْكَمْنَجَةِ
بَعْدَ انْتِهَاءِ الدَّرْسِ
فَهِيَ التِّي تَبْعَتْهُ
مِنْ وَحْشَةٍ لِأَنْفُسِ
بِالْقَوْسِ تَشْدُو طَرْبًا
وَبِالْبَنْبَانِ الْخَمْسِ
تَجْلُو النِّهْيَ مِنْ صَدَا
تَطْلُقُهَا مِنْ حَبْسِ
عَزَّ زَفَّ الْكَمْنَجَةِ نَغْمٌ
فِيهِ سُرُورُ النَّفْسِ

ومثلها قصيدة "الشحاذون" التي تعلم الصغار الأريحية والكرم، وتحثهم على التصديق على

الفقراء، وتحذرهم من تضليل الدجالين الذين يتظاهرون بالفقر والمرض، ليستدروا أكف المحسنين، بعد أن تحول الاستعطاء عندهم مهنة رائجة، ولجأ إليها كل متعطل عن العمل لأنها مورد عذب:

أَعْطَى الْفُقَرَاءَ عَلَى ثَقَّةٍ
وَاحْذَرُ مَنْ يَسْأَلُ فِي السُّبُلِ
فَكثِيرٌ مِنْهُمْ مُخْتَلِقٌ
وَكثِيرٌ مِنْهُمْ ذُو حِيلٍ
كَمْ لَصِ مِنْهُمْ مَسْتَتِرٌ
بِالْفَقْرِ تَظَنُّوا هَرَّ الْعُلَّ
وَجَدَ الْإِحْسَانَ يَسُوقُ لَهُ
رِزْقًا فَتَعَطَّلَ مِنْ عَمَلٍ
وَمَضَى يَسْتَعِزُّ بِمُورَدِهِ
وَتَعَوَّدَ أَخْلَاقَ السُّبُلِ
إِنْ تَعَطَّلَ السُّبُلُ بَغْيَتُهُ
تَكْثُرُ فِي النَّاسِ مِنَ الْهَمَلِ

- ٥ -

إلا أن كامل كيلاني يبقى الكاتب الأول الذي ترك بصماته الواضحة على أدب الأطفال في مصر، يليه كل من: محمد عطية الأبراشي، ومحمد أحمد برانق، وحسن جوهر، ورفعت النجدي، وعادل الغضبان، ومحمد سعيد العريان، ومتبولي عطية، وعبد الحميد الطرزي... أما في ميدان الترجمة فنذكر: إبراهيم عزوز، وأحمد قابيل، وأمين العطار، وأمينة السعيد وغيرهم.

لقد ألف كامل كيلاني وترجم واقتبس ولخص مئات القصص، ونشرها تحت أسماء: "قصص فكاية، قصص من ألف ليلة وليلة، قصص هندية، قصص شكسبير، أساطير من العالم، أشهر القصص، قصص علمية، قصص

عربية، قصص تمثيلية...". وتوخى أن يختار أحسن القصص وأروعها وأجملها، شارحاً كل كلمة يظن أنها فوق مستوى الطفل.

أما محمد عطية الأبراشي فقد بلغ مجموع ما نشره في عشر سنوات من ١٩٦٠-١٩٧٠ مئة وأربعة كتب بين مؤلف ومترجم، اختار لها صفوة القصص من شرقية وغربية، وراعى فيها ميول الأطفال ورغباتهم وتفكيرهم وخيالهم، حتى إنه كان يقرأ الكتاب القصصي الكبير، فلا يختار منه بالرغم من تعدد قصصه إلا قصة واحدة، وقد نوع في اختياره، فأتى بالقصص الخيالية، والواقعية، والاجتماعية، والخلقية، والعلمية، والأدبية، والجغرافية، والتاريخية.

إن إي كتاب نشره في سلسلة "المكتبة الحديثة للأطفال" يتصل بحياة الطفل كل الاتصال، ويرغبه في القراءة، ويشوقه إلى الاستمرار فيها، فما إن يبدأ أول قصة حتى يستهويه وضوحها، وسهولة لغتها، وجمال أسلوبها، وحرصها على المثل العليا في النواحي الخلقية والاجتماعية والعاطفية، فيمضي إلى نهايتها، وقد راعى فيها جميعاً سهولة اللغة، وجمال الأسلوب، وشرح الكلمات اللغوية الصعبة، كما وضع بعض القصص بالصور التي تعين على فهمها، فيكتسب الطفل منها دقة الملاحظة، وجمال الذوق، وكان يضع في نهاية كل قصة مجموعة من الأسئلة للإجابة عليها، كما يضع طائفة من الأجوبة، يطلب السؤال عنها.

لا يمكن سرد أسماء جميع كتب الأطفال، أو السلاسل المتنوعة التي صدرت فيها، في مصر، فقد سبقتنا في هذا المجال بأشواط واسعة، لكنني أحيل من يريد التوسع إلى العدد ٨٤ من مجلة "الكتاب العربي" الخاص بكتب

الأطفال التي صدرت ما بين ١٩٦٠-١٩٧٠ وهو يحوي دراسة شاملة لها، مع قوائم علمية بإنتاجها، ولا شك في أن كتباً كثيرة صدرت قبل هذين التاريخين وهذا الفيض في كتب الأطفال في مصر^(*) يشعرونا بالتقصير أمام فلذات أكبادنا، ويدعونا إلى تدارك هذا النقص الكبير، وسد الثغرة التي فتحت في أدبنا العربي على مر العصور.

- ٦ -

نشأ أدب الأطفال في سورية في ظل المدارس، وكانت الغاية منه التعليم والتهديب والتوجيه، والحث على الفضائل، والتمسك بالقيم، والسعي للوصول إلى المثل العليا... ولا أعرف من عمل في هذا الميدان قبل جميل وأنور سلطان وعبد الرحمن السفرجلاني، فقد أصدروا معاً كتاب "الاستظهار المصور" في أدب البنين والبنات، عن المكتبة الهاشمية عام ١٩٣٧ فجاء في حلقتي لا يزيد عدد صفحات كل حلقة على الثلاثين صفحة، ساروا فيهما على نهج الشاعر محمد الهراوي في مصر، فتحدثوا عن: البطيخة، والقبرة، والاعتماد على النفس، والإبرة، واليراعة، والديك، والدجاجة، ومكارم الأخلاق، والعلم، والفلاح، والقلم، وكرة القدم، والصباح، والنحل، والكتاب، والأرنب، والعمال الصغار، والهرة النظيفة، إضافة إلى عدد من الأحجيات والأناشيد... وقد طغى على هذه الأناشيد طابع التعليم والإرشاد، وقلت فيها الحكاية. ولا غرو، فقد نظمت لتلاميذ المدارس في المرحلة الابتدائية، فاخترت لها الأبحر

(*) بلغ مجموع ما أنتجته مصر من كتب الأطفال في عشر سنوات أنفي كتاب، أي بمعدل منتي كتاب في السنة الواحدة، وهذا دليل على اهتمامها الزائد بأدب الأطفال.

السهلة، كالوافر، والرمل، والهزج، والمجزوءة
كمجزوء الكامل وغيره... من هذه الأحاجي
التي تروض ذهن الطفل، وتحثه على التفكير،
قول جميل سلطان في المنديل، تحت عنوان
"احزر"؟

ماذا الذي ينشأ في الـ
تـراب تحـت قـدميك
تغزلـه الآلـة أو
يُنسجُ ما بين يديك
وهو بكل صلـح
مقبـل لوجنتيك
احزر ! هو ... قد
خصص في البيت إليك

وقوله ملغزا في "الرمانة":

ما قشـرة رقيقة
كأنها فنجـان
مغلقة داخـلها
اللولـؤ والمرجـان
من مؤنـة البيـت
ومما يثمر البسـتان
ينالها المجـد والأديـ
ب والكسـل
وأنت تهـوى أكلـها
فاحزر: هـي ...

وتعتمد قصائد "الاستظهار المصور" على
الوصف الدقيق، وبعث روح الهممة والعمل
والنشاط، ومن أنشط من النحلة ليضرب
بها المثل في الدأب والمثابرة، والجلد
والكفاح؟ يقول جميل سلطان تحت عنوان "نحن
والنحل":

النحلـة المبـرة
تطـوف حـول الزهـرة
خارجـة مـن معمـل
لروضـة منحـدره
سـاعيةً عامـلة
عـن سـاقها مشـمـرة
ولا تراهـا أبـدا
عـن عمـل مقصـره
ونحن نمضي في الصبـا
حـلـل دروس بـررة
نكسب في العـلم وفي
الرضـاء خير ثـمرة
للنحل شـهدا
فـي كل درس سـكرة

ونلاحظ في هذه القصيدة كيف جعل النحل
قدوة، وربط العمل بالمكافأة، فالنحلة تكافأ على
جدها بالشهد، والطفل يكافأ على الدرس بقطعة
السكر.

وفي قصيدة "أغنية الصغير" حث على
الاجتهاد وحب الأدب، والتمسك بالقومية
العربية، واحترام المعلمين، والتفاني في
سبيلهم:

أنا في سـن الصـغر
لست أعرف الضـجر
همتي فوق البشـر
واجتهـادي لا يلـين
أنا في سـن الصـبا
بست أهـوى الأدبـا
وأحب العربـا
خير قـوم أكـرمين
أبذل الـروح لمن
علموني في الـزمن

ولمــن يهــوى الــوطــن
بــين أضــلاعــي حــنــين

-٧-

لا أذكر كتاباً آخر صدر للأطفال ما بين ١٩٣٧-١٩٦٠ إلا مسرحية القاص عادل أبو شنب "الفصل الجميل" التي صدرت عن دار مجلة الثقافة عام ١٩٦٠. وهي مسرحية ذات فصل واحد، كتبها ليسد بها فراغاً بينا في أدب الأطفال، كما يقول في مقدمتها، وليجيب على كثير من التساؤلات الملحة: "لماذا لا يكون للأطفال مسرح خاص بهم؟ لماذا لا تؤلف مسرحيات خاصة بهم؟ لماذا يعرض كتابنا عن هذا الضرب من الأدب... من أجل الأكباد التي تستحق التعهد والرعاية منذ الصغر؟".

تصور مسرحية "الفصل الجميل" مشهداً لا يمكن وقوعه في العالم المألوف، كما أن الأشخاص الذين يمثلونها رموز لمدلولات معنوية في أغلب الأحيان، فهي إذاً مسرحية أسطورية، أبطالها الشتاء، والفتاة، والبستان، والمدينة، والغابة، والربيع، لذلك يؤكد المؤلف على أن يكون الديكور فيها منسجماً مع الحوادث الأسطورية التي تعالجها، وعلى أن تكون الملابس منسجمة أيضاً. وقد كان يظن أن الإقدام "على تأليف هذا الضرب من المسرحيات أمر سهل يسير، وأن مسرحية صغيرة كهذه لن تستغرق أكثر من يوم وليلة في أبعد الحدود، ولكن تبين أن التفهقر إلى عالم الطفولة وانتقاء الكلمات التي يمكن أن تنطق وتفهم بسهولة، واصطفاء فكرة مشوقة يهتم لها الأطفال ويتابعونها أمور صعبة جداً.

كتب حوار المسرحية بلغة قريبة من السجع، ربما ليمنحه شيئاً من التنعيم والموسيقى، ويبدو قريباً من الشعر، فيسهل

حفظه على الأطفال، إلا أنه لم يكن يلتزم ذلك دائماً.. يقول على لسان الشتاء مثلاً: "أنا الشتاء، صانع الخيرات، حامل البركات، لولاي ما جرت في الربيع الجداول، لولاي ما كانت في الصيف السنابل، لولاي ما غنت العصافير والبلابل...".

-٨-

ثم يجب أن ننتظر أربع سنوات أخرى، حيث يطالعا ديوان "أغاني الأطفال" للشاعر أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) الذي أصدرته مكتبة "أطلس" بدمشق عام ١٩٦٤، ويحوي سبع عشرة قصيدة وأنشودة كلها من نظمه، باستثناء أنشودة "ديكي أحبه" التي اختارها للشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان (١٩١٧-٢٠٠٣)، وقد وضع أمام كل قصيدة نوطتها الموسيقية، عدا القصائد الخمس الأخيرة.

يذكر أبو سلمى (١٩٠٩-١٩٨٠) في مقدمة الديوان الدوافع التي حملته على الكتابة للأطفال، فيجعل في طليعتها خلو مكتبتنا العربية من هذا اللون الموجه للصغار، وإلى أن الأدب العربي القديم قد أهملهم كلياً عدة قرون، فعاشوا في عالم عابس صارم، خال من البهجة والسرور، وقد توخى "أن تكون ألفاظ هذه القصائد الغنائية سهلة، وأوزانها خفيفة، وموضوعاتها مشوقة، وأن تحمل أفكاراً بسيطة ونبيلة، وأن تحبب أطفالنا بالطبيعة، والوطن، وعمل الخير... كذلك جاءت ألحانها منسجمة متسقة تتعاون مع الكلمات والموضوعات على تهذيب وتوجيه تلك النفوس البريئة الصغيرة التي أهملها أدبنا العربي طويلاً".

ولما كان يعرف ولع الصغار بالحيوانات والطيور، ولا سيما الأليف منها، فقد نظم لهم أناشيد "راعي الغنم" و"البغاء" و"البلبل"،

وحدثهم بأسلوب لطيف عن القطة، والديك،
والعندليب، والعصفور، وحاول أن يحل أعينهم
بمفاتيح الطبيعة الجميلة، ويبصرهم بمحاسنها،
ويطلعهم على أروع ما فيها من بهجة وإشراق
في "تسيم الربى" و"النهر"، ولم يفته أن ينمي
فيهم الإحساس بالقومية العربية، فكتب لهم
"جنة الدنيا بلادي" و"يا رفاق السلاح" و"تشيد
الحرس" و"عيد الجلاء" و"الوحدة العربية"
ويلفت أنظارهم إلى واقع إخوانهم أطفال
فلسطين الذين نزحوا عن أرضهم وديارهم
عنوة في قصيدة "الشريد". كما حاول من خلال
قصائده أن يرشد الأطفال إلى القيام بواجباتهم،
ويحثهم على الدرس والجد والاجتهاد، فيخاطب
الطفلة "ليلي" بهذه الكلمات المأنوسة العذبة
قائلاً لها:

هَيَّا اكتبِي
درَسَكِ يَليَا ليلي
ثم العبِي
وقطِي ليلي
وحذري أن تغضبي

ثم يتحدث بلسان ليلي إلى القطة ألا تأكل
عصفورتها حبيبته، وأن تنتظر لترى المستقبل
الباهر الذي ينتظرها، ما دامت تسير في
دروسها سيراً حسناً، وترجو القطة ألا تشعر
بالضجر والملل، إذا لم تستطع أن تنصرف
إليها وتلاعبها، ففي البيت أمها وأبوها، وهي
تؤثر كتبها على كل شيء:

يَا قطة
لا تَأْكلي عُصْفُورتي
يَا قطة
عصْفُورتي حُبِّي وبتي

تُنشِدُ لي في ملعبِي
يَا قطة
انتظري غرسِي
أنا التِي
أسير للدرس
ألا تَـرِينِ كُتُبِي؟
يَا قطة
عنْدَكَ أُمِّي وأبِي
ولعبتي
لا تعبِي لا تعبِي
أحسنْ مِنْكَ مكتبِي

وفي "تشيد الببغا" ينصح الطفل بالألا يكون
مقلداً مثلها، ويكرر له عبارة "فلا تكن كالبيبغا":

الببغا مقلد
ولا تُرى مجدد
تُعْجِمُ في بيانهَا
والعقل في لسانها
تقول ما قيل لها
فلا تكن كالبيبغا

ثم يصف شكلها: فمنقارها محدب، وريشها
جميل، وإذا حبسها الطفل فلحرصه عليها،
وتعلقه بها، ولحبه إياها، لأنها تؤنسها في
وحشته:

منقارها محدب
وريشها محبب
أحبسها في غرفتي
وذاك من محبتي
تؤنسني في وحشتي
الببغا، الببغا
لسانها أطول
وشكلها أجمل

فمــــررة تَحْبُنــــي
ومــــررة تَســــبُنــــي
تَقــــول مــــا قــــيل لــــها
فــــلا تــــكــــن كــــالبــــغــــا

وبالإجمال فديوان "أغاني الأطفال" لأبي سلمى كان أول لبنة وضعت في بناء شعر الأطفال في سورية، وقد حوى كل براءة الأطفال، وعالمهم الملون الزاهي المليء بالخيالات والأحلام المجنحة.

- ٩ -

لاحظنا من النماذج التي مرت بنا باستثناء أغاني الأطفال والفصل الجميل أنها كانت تخاطب الصغار بلغة الكبار الذين أبوا أن يترجلوا عن خيولهم الخشبية، ليداعبوا طفلاً بأنشودة، أو يضعوا على ثغره أغنية، أو أقصوصة، أو حكاية. وهي أقرب إلى الإنشاء، منها إلى أدب الأطفال الحقيقي. لكن لم يكتب لهذه المحاولات التي مرت بنا أن تتبلور، إلا بعد نسخة حزيران عام ١٩٦٧، وصدور مجلتي "أسامة" عام ١٩٦٩، و "رافع" عام ١٩٧٠ للأطفال، حيث توجه بعض الشعراء وكتاب القصة بإنتاجهم للأطفال، كسليمان العيسى، وزكريا تامر، عبد الله عبد، وعادل أبو شنب، وأيوب منصور، ودلال حاتم، واسكندر لوقا، ولى سالم وعزيز نصار وبين الصفدي وغيرهم...

يقول سليمان العيسى "وذات يوم أفاقت أمتنا العربية على كارثة من كوارثها المتلاحقة، على نسخة حزيران... في هذه الزوبعة السوداء الخائفة... التفت إلى الأطفال.. رأيت في عيونهم غد الأمة العربية ومستقبلها، لم لا أتجه إليهم؟ لم لا أكتب لهم؟ لم لا أنقل إليهم

همومي كلها؟ الشهيد الذي يسقط على أرض المعركة، وهو يقاتل الغزو الأسود، لا أستطيع أن أنتقم له بأحسن من أغنية تحمل قطرة من دمه، وتتردد حارة على شفاه الأطفال... نتواري نحن... نيبس، نجف، ويأتي أطفالنا أمواجاً متلاحقة ترفد المد العظيم... من إيماني بهذه الحقيقة الصغيرة الكبيرة، المتواضعة الشامخة، بدأت رحلتي مع الصغار، أخذت أكتب لهم، أغني معهم، أنفق الساعات الطويلة بينهم، أختار لهم الكلمة المشرقة، والصورة الموحية، والموسيقى المعبرة".

وكذلك يربط القاص زكريا تامر بين نسخة حزيران واتجاه الشعراء والكتاب نحو الأطفال، غد الأمة العربية المشرق، ليغرسوا في قلوبهم معنى الإيمان والصمود، ويجسدوا في أذهانهم فكرة البطولة الحقّة، فكانهم قد ينسوا من الكبار، فمالوا إلى الصغار، لعلهم يغسلون عار حزيران، بعد أن يصبحوا شباناً، يتفجرون عزماً وقوة ومضاء فيقول:

"عندما جاءت حرب حزيران ونتائجها، ازداد ارتباطي بالواقع، وصار أكثر حدة وصرامة، وابتدأت أنظر إلى الصغار نظرة مختلفة. إنهم الجيل الذي سيطلب منه في المستقبل أن يجابه عدواً شرساً، ولذا فلا بد من منحه الوعي وإرادة التحدي، والرغبة العميقة في التغيير والحفاظ عليه... لا بد من أن يكون جيلًا قادرًا على التضحية في سبيل العدالة والحرية والفرح".

وقد تكون هناك حوافز عامة أخرى للكتابة للأطفال، منها خلو مكتبتنا العربية من كتب الأطفال، وميل بعض الكتاب بالفطرة إلى هذا اللون المحبب الممتع من القصص التي تدور على أسنة الحيوانات والطيور، وأبطالها النهر، والبحر، والسماء، والريح، والعصافير،

والقطط... إلا أن وجود مجلات للأطفال أسبوعية أو نصف شهرية أو شهرية كان العامل الأهم على تطوير أدب الأطفال، فأقبل الكتاب على التأليف والترجمة إقبالاً منقطع النظير، ليسدوا نهم الأطفال الشديد للقراءة والمطالعة، فالطفل قارئ جيد وذو طاقة جبارة على الحفظ والاستيعاب، يلتقط بسرعة، كأنه رادار عجيب، ويعكف ساعات طويلة على القراءة بلا ملل أو كلال، إذا كانت المادة التي يقرأها جذابة، تخاطب مشاعره، وتداعب أحاسيسه، وتنمي خياله، وتروي ظمأه إلى المعرفة.

إن من يطلع على السلم البياني لمطبوعات ومبيعات مجلة "أسامة"^(١) يذهل لهذا الارتفاع الملحوظ في نسبة الطبع والبيع والتوزيع، فالأطفال يقبلون على قراءتها، ويترقبون صدورها أول كل شهر بفارغ الصبر، فلا تكاد تصل إلى الأسواق، حتى تنفد في أيام معدودات، ولا يبقى أي أثر لها... ولا شك أن سعرها الزهيد، رغم غلاء الورق وأجور الطباعة، هو الذي يغري أفقر طفل بشرائها وربما بشراء أكثر من نسخة منها، ولا يمكن أن يسد هذا النقص إلا بجعلها أسبوعية، أو زيادة عدد صفحاتها إلى أكثر من اثنتين وأربعين صفحة. أما مجلة "رافع" التي صدرت في ١٥/٨/١٩٧٠ عن مؤسسة الوحدة فلم تعش إلا عاماً واحداً، وكانت تصدر صباح كل سبت في اثنتين وثلاثين صفحة من القطع

(١) صدرت "أسامة" مجلة الطفل العربي عن وزارة الثقافة في أول شباط عام ١٩٦٩، ومن أهدافها تنمية وعي الطفل العربي على قيم أمته وتزويده بالثقافة الصحيحة، وتقديم التسلية المفيدة. وقد دأبت على تقديم موضوعاتها بالفصحى المشكولة غالباً، حتى يرسخ الصرف الصحيح واللغة الصحيحة في أذهان الأطفال.

الوسط، بخط اليد، وتخرج أجمل إخراج، وتحمل للأطفال القصص والحكايات والرسوم الجميلة، وسميت باسم رافع، نسبة إلى رافع بن خديج، وهو فتى عربي شجاع من قبيلة الأوس، كان يحب وطنه العربي حباً جماً، ويؤمن بأن السيف وحده هو القادر على هزيمة الظلم. وقد ساهم في

تحريرها كل من الشاعر سليمان العيسى، ومحمود السيد، وزكريا تامر، وأيوب منصور، وغيرهم...

من الشعراء الذين برزوا بشكل واضح في ميدان الكتابة للأطفال سليمان العيسى الذي كرس معظم إنتاجه الشعري الأخير، إن لم نقل كله، للأطفال، ففي مجال المسرح ألف لهم عام ١٩٧١ مسرحية طويلة بعنوان "النهر"، ثم عاد فأصدر لهم عام ١٩٧٣ ست مسرحيات غنائية في كتاب واحد ضم: "الأطفال يحملون الراية" و"الشجرة" و"الأطفال يزورون المعري" و"الصرصور والنملة" و"مستشفى الأطفال" و"الأطفال يبنون مدرسة"، ثم مسرحية "المستقبل".

يرى سليمان العيسى أنه "كما لا تتفتح أزهار الربيع إلا بالشمس والهواء والماء، كذلك لا يتفتح الأطفال على كل جميل ورائع إلا بالموسيقى والحركة والغناء"، ويقول أيضاً: "دعوا الطفل يغني، بل غنوا معه، أيها الكبار... إن الكلمة الحلوة الجميلة التي نضعها على شفثيه، هي أثنى هدية نقدمها له... لكي يحب الأطفال لغتهم، لكي يحبوا وطنهم، لكي يحبوا الناس والزهر، والربيع، والحياة، علموهم الأناشيد الحلوة، اكتبوا لهم شعراً...".

كتب سليمان العيسى، إضافة إلى المسرحيات التي ذكرتها، طائفة كبيرة من الأناشيد الغنائية، صدرت تحت عنوان "أناشيد

تم لأ قلب
بندي الح
أنشيد
عدي
بسمة أمي
سرّ وجودي

وفي نشيد "فلسطين داري" حيث يهتف
جميع الصغار بصوت واحد يفيض نبوة
وحماسة، ويتفجر نخوة وحمية:

فلسطين داري
ودرب انتصاري
تظلل بلادي
هوى فني فؤادي
ولحننا أبيض
على شفتينا
وجوه غريبة
بأرض السليبية
تبيع ثمنا داري
وتحتل داري

- ١١ -

أما الشاعر حامد حسن (١٩١٨-١٩٩٩) فقد استطاع من خلال عمله في مجلة "أسامة" أن ينشر عدداً من القصائد التي لم تجمع حتى الآن في ديوان، مثل "عربي" و "بلادنا في الربيع" و "البندقية" وكلها قصائد توجيحية بناءة هادفة، كما يلاحظ من عناوينها. يقول في قصيدة "عربي":

علمتني في الصبا أمي
في وأوصاني أبي
عش لهذا الشعب عش لل
علم عش للآداب

للصغار" عام ١٩٧٥ ثم "غنوا أيها الصغار" عام ١٩٧٧، كما صدر له في منشورات "مجلتي" "القطار الأخضر"، وهو رحلة غنائية شعرية تتألف من واحد وعشرين نشيداً، يطوف بها على عواصم الوطن العربي كلها، ويرسم فيها للصغار طريق المستقبل العربي، وقد صدرت جميع أعمال سليمان العيسى الشعرية التي كتبها للأطفال في ثلاثة مجلدات أنيقة الطبع. والجدير بالذكر أنه انصرف في الفترة الأخيرة انصرافاً كلياً إلى الكتابة للأطفال، لأنهم في رأيه "غد الأمة العربية ومستقبلها المشرق" فلم لا يتجه إليهم، ويكتب لأحبائه: ريم، وتيم، وديمة، وطلال قائلاً:

ريم ريم
في بستان اللوز
قالت زهرة لوز
اسم الزهر قديم
سميناها ريم

ولصديقه الصغير "تيم" على شاطئ اللاذقية:

صديقي "تيم" جاء الصي
فمن بواب البحر
وهدنا بما في جي
به المثقوب من حر
وغادرت العصافير محاسنها
وأعني بيننا أعني مدارسها

ولنسمعه يغني مع الأطفال الصغار في "نشيد ماما" ألحاناً لا أعذب ولا أحلى قائلاً:

ماما ماما
يما أنغام

كــن لســوريه للتــسا
ريــخ كــن للعــرب

ويقول في قصيدة "بلادنا في الربيع" التي
يصف فيها سورية في فصل الربيع، وتفتح
الزهر، ورقة النسيم المعطر:

جــاء الربيع النــاعم
ورقــت النــائم
والخــير فــي حقولنا
مواســم مواســم
والزهر فــي جناتنا
مفــتــح ونــائم

وشارك عيسى فتوح في الكتابة للأطفال،
فنظم بعض القصائد، لكنه اتجه للقصة
مؤلفة ومترجمة، فنشرت له وزارة الثقافة
خمسة كتب هي: "عندما جاءت عصافير
الدوري" ديوان شعر مصور للشاعرة البلغارية
ليدا ميليفا، و"مدرسة اللقلق" مجموعة
قصصية لسبعة من أبرز كتاب قصص الأطفال
في روسيا هم: م. بلياتسكوفسكي، إيرينا
زيلينوفا، ألكسي تولستوي، سيلفي فالجال،
ألكسندر بوشكين، يوري أفيرنكوف، فالنتين
كاتايف. و"دنيا الحكايات" للكاتب البلغاري أنجل
كاراليتشف، و"الفأس الذهبية" وهو مجموعة
قصصية لطائفة من أشهر الكتاب في روسيا
وبلغاريا ورومانيا والصين وبنغلادش و"النمس
الوفي" وهو مجموعة من الحكايات الهندية.
ومن شعره الذي نشره في مجلة "أسامة"
عام ١٩٧٤ قوله في قصيدة بعنوان "قطي":

قطــي الســاهر
فــي الأســحار

عــين يــقــظ
تــحــمــي داري
دومــي يــهــوي
صــيــد الفــار
يــســمــي قــفــزا
للأوكــار
قــطــي يــبــي
ذــل العــار
قــطــي يــهــوي
أخــذ الثــار

وهناك شعراء آخرون جربوا أقلامهم في
الكتابة للأطفال، فنظموا قصائد قليلة، إلا أنهم
لم ينصرفوا لهم انصرافاً كلياً أو جزئياً،
باستثناء مصطفى عكرمة الذي كان أكثرهم
اهتماماً، فألف مسرحية "جند الكرامة" و"في
الطريق". من هؤلاء: سلامة عبيد، خليل
خوري، محمد الحريري، أحمد الجندي، نصوح
فاخوري، بيان الصفدي، محمود السيد
وغيرهم.

أما نصيب أدب الأطفال من القصة فكان
أوفر، إذ أقبل عليها الكتاب والمترجمون إقبالاً
كبيراً، وراحوا يتنافسون فيها، ايسدوا النقص
الواضح الذي عانى منه أدبنا العربي عدة
قرون، وقد جمع أكثرهم قصصهم في كتب،
لكي لا تبقى موزعة في مجلة "أسامة" وغيرها
منهم، لينا كيلاتي، عبد اللطيف أرناؤوط، سعد
صائب، خيري عبد ربه، حسيب كيالي، ولا
يجوز أن نغفل بعض الأسماء اللمعة في ميدان
التأليف والترجمة الدائمين كميخائيل عيد
ومحمد قرانيا ويلي صايا، ودلال حاتم، ونصر
الدين البحرة، ووليد معماري، ومراد السباعي،
وعزيز نصار، وبيان الصفدي وغيرهم.



السؤال الأخير..



شعر الدكتور: عمر النص

- ١ -

تساءلتُ ماذا تبقى من الحلم؟
ماذا تبقى من الأنجم الباهرات تسافر فوق دروب العقيق
فتزرع قفراً وتنزع سترًا وتترك فوق الغيوم العطاش بقايا
بريق
تساءلتُ ماذا تبقى من البرق حين تضيء السماء
فيهلك ليل الدهور الخوالي.. فنشهد زهو الأساطير حين
تهاجر صباحاً..
فتفتح للمدن الغافيات مرافئ
تخرج منها الضلوع محملة بالآلي..

- ٢ -

تساءلتُ ماذا تبقى من الحب؟
ماذا تبقى من العشق والنفوان؟
من الشوق يلهم في الناظرين؟
من النار تكوي العروق فتطلع فوق الرماد حديقة وردٍ
ترق لها الريح حين تعاودها الذكريات فتتركها تزهر
وماذا تبقى من الأغنيات التي أينعت في دمي ثم ماتت





ولم يبق منها سوى أحرف نسيت ما تقول
فراحت تهز الضلوع فخلت الهوى في دمي يجأر..

-٣-

تساءلتُ ماذا تبقى من الحلم؟
ماذا تبقى من العشق؟
ماذا تبقى من الذكريات التي تعبر الأفق هاربة من
إساري؟
ألم يتعب الصخر من قدمي اللتين نشقتا في القفار؟
ألم تمح كل الحكايات بعدي؟
ألم يمح ما كان أو قد يكون؟
ألم تنفذ الأسئلة؟
ولم يبق غير سؤال أخير؟
سؤال صغير.. أخير.. يلح.. يصبح على الشفتين.. يقول..
وماذا تبقى من العمر بعد رحيل الشباب وبعد انتحار
الزنابق بعد نضوب البحار.. وبعد اختفاء العناوين عن كل
باب..
وماذا تبقى من العمر بعد رحيل السراب..
فهذي حدائقنا فتحت بابها للشتاء.. ولم يبق غير التراب..
ولم يبق غير السؤال الأخير..
يضج على الشفتين..
يلح ولم يبق غير السؤال الأخير دون جواب..



اللغة العربية الفصحى

"أسباب الخلل
وعوامل النهوض بها"

بقلم الدكتور:

فخر الدين قباوه

نحن، أبناء العرب في المشرق
والمغرب نعاني كثيراً من الآلام المشتركة،
ونحس بحاجة إلى التعاون على معالجتها
للتخلص من ذيول التخلف المرير. وبعض هذه
الآلام عميق الجذور في نفوسنا، خطير الأثر
في حاضرنا ومستقبلنا، بعيد المدى في تكويننا
الحضاري والإنساني، يكاد يستعصي على
التقويم والإصلاح.

ولعل من أبرز هذه الآلام المستعصية
ما تنوء به لغتنا العربية الفصحى، فنحن
مدرسين وأدباء وعلماء، كثيراً ما نشكو مما
آلت إليه هذه اللغة في ديار العرب.

إنها تعيش حبيس بعض الدوائر
الصغرى من حياتنا العلمية، ولا تستطيع أن
تتنفس في كل ميدان وعلى كل قلم ولسان. بل
إن أكثر المثقفين ومدعي العلم والأدب ليعجز
أن يتمثل هذه اللغة المباركة في نشاطه
وإنتاجه، فيصب عليها سخطه وغضبه، ويرى
النجاة من عثراته في التفلت من أحكام العربية
وقواعدها لينطلق في متاهات العجمة والضلال.
حتى لقد أصبح من أشيع المبادئ
وأروجها أن تتسلل أصابع العامية والأعجمية
إلى لغة العلماء والأدباء، بل الدارسين
والمؤلفين.

العامية والثقافة

وإننا لا ننكر أن تكون اللهجات العامية،
في بلاد العرب، قد دخل عليها تحسن ملموس
في هذا القرن، بعد جلاء دول الاحتلال
والاستعمار، فارتفعت من حضيض العجمة
المفرقة إلى مستوى يتصل ببعض مظاهر

الفصحى وأساليبها. وقد ساعد في ذلك على انحسار اللغات الأعجمية التي كانت مستبدة بالثقافة والتعليم والتوجيه، وتقلص رقعة الأمية في المجتمع العربي. ولذا أصبحت ترى اللهجات المحلية تغزوها كلمات فصيحة، وجمل عربية، وعبارات قريبة جداً من الفصحى.

ولعل هذه الظاهرة قد ضللت بعض الباحثين، فباتوا يرون أن مشكلة اللغة مرها يسير، وإنها قضية اجتماعية ثقافية، علاجها محو الأمية ونشر التعليم والثقافة.

انحدار الفصحى

والحق أن ارتفاع مستوى العامية واكبه انحدار لغة العلم والأدب، وتدني أساليبها ومفرداتها، كتابة وقراءة وأداء وإذا قدر لنا أن سير في هذا الاتجاه مراحل أخرى فإن اللغة الفصحى ستصبح، بلا شك، في خطر محقق ينذر بالفناء والضياع. فاللهجات العامية، وهي تعارض الفصحى وتستقي منها، تنقل إليها بعض تعابيرها وكلماتها على أسنة المثقفين وأقلامهم، فتشدها إلى ميادين غريبة تهدد بالاضمحلال والاندثار.

ولهذا أصبح ضعف اللغة العربية في صفوف المثقفين والمتعلمين ظاهرة ملحوظة تزداد قوة يوماً بعد يوم. فقد كان هؤلاء في عهود الاحتلال والاستعمار شد حرصاً على فصاحة الكلمة، وبلاغة العبارة، والاستقاء من ينابيع البيان العربي الأصيل، والأعراض عن رطانة الأعاجم وسفساف العامة.

أما اليوم فقد أصبحنا نراهم ينزلقون إلى مهاوي العجمة العامة واللهجات المحلية

فيستمدون منها عامدين أو غافلين كثيراً من مادة نتاجهم الأدبي والعلمي.

وأنت ترى هذا الخطر يتفاقم مع الأيام حتى ليكاد يشكل عثرة أزلية، ومعضلة أبدية في طريق الأمة نحو اكتشاف ذاتها، وتحديد سبيل الحياة الكريمة المطمئنة.

إنها ليست مسألة لغوية اجتداعية فحسب، وإنما هي داء نفسي وعقلي وعلمي، يهدد مقومات العرب وحضارتهم ووجودهم في الحاضر والمستقبل.

وإذا حاولنا أن نتلمس بؤادر هذا الداء، ونتتبع أصوله ومصادره، لنضع أيدينا على الأسباب التي ولدته ورعت نموه وتطوره، استوقفنا نقاط كثيرة متداخلة، يتعذر حصرها وتحديد ملامح كل منها.

وحسبنا أن نذكر ها هنا أبرزها وأخطرها.

ثنائية لغوية

ونعني بالثنائية اللغوية هذا التداخل العجيب بين الفصحى واللهجات الدارجة يستخدمها كل عربي، مثقفاً كان أم أمياً. فهو يتلقى في طفولته أول لهجة عامية متهافئة، ويزود بها في البيت ثم في الشارع والنادي والملعب والملهى، وسائر مصادر الثقافة الشعبية. بل إنه يتعلم بعضها أيضاً في المدرسة والمعهد والجامعة ومن المذيع والصحافة والتلفاز، ويمارسها في جميع شؤون حياته تفكيراً وتعبيراً. حتى إذا درس اللغة الفصحى قدمت إليه مثقلة بأوزار العامية وما تحمله من آثار محلية وأعجمية تستبد بفكره ولسانه

وقلمه، وتغمر تلك الشذرات الفصحى، وتفسد مدلولها وغاياتها التي ترمي إليها.

فإذا أراد الكتابة، بعد هذا، أو النظم أو القراءة في محفل قام في نفسه صراع خفي بين قوتين متدافعتين متناقضتين، أحدهما تجره إلى الكثرة المفرطة التي غمرته بها بيئته، والأخرى تشده إلى بوارق غائمة مما زودته بعض المصادر العربية الأصيلة. فإذا هو يعاني عنفوان الصراع، ويدفع نفسه جاهداً ليرتفع بها إلى أصالة اللغة وصفائها، ولكنها يجابهه بسلطان العامية المسيطرة على ثقافته وقدراته، وتفتلت زمام الفصحى من يده فينهار أمام القوة الكبرى، ويستسلم لتيارات اللهجات الدارجة، تتخلل لغته فتفسدها أو تطغى عليها.

لغة هجينة

وقد كان لهذا الرجحان عوامل مساعدة متناثرة، أظهرها وأبلغها تسلط الأعاجم على البلاد العربية برجالهم وثقافتهم وحضارتهم ولغاتهم. فقد عشنا قروناً متوالية عبيداً أو كالعبيد، لسلطان الأعاجم ممالك وعثمانيين وبربراً وفرنجة، فاضمل التيه العربي، وذاب الاعتداد بالنفس واللغة والدين والتاريخ ليحل محله الانبهار بالعجمة وزخارفها، والاستسلام لبهرج التقليد والانحدار، والتردي في أحضان الصغار.

حتى أن كثيراً من أبنائنا أصبحوا ينظرون إلى الفرنجة ولغاتهم وثقافتهم بعين الإكبار والإجلال، ويرون الحضارة الإسلامية واللغة العربية أقل من تملأ قلوبنا وعقولنا، وتثمراً واقعاً يمهد للنمو والتحرر والتقدم. ولذا

يطالعنا بين حين وآخر تعشق أبناء العروبة للغات الأعاجم وأخلاقهم، وتفأخرهم باستخدام اللغات الهجينة في كلمات أو عبارات أو جمل، وأعراضهم عن البيان العربي تحت وطأة الضعف اللغوي الذي يعانون والانهيار النفسي الذي يكابدون.

صحيح أن اللهجات الدارجة هي في الأصل تشويه للعربية الفصحى، وصحيح أيضاً أن هذا التشويه لم يكن للاحتلال والاستعمار يد في غرس جذوره، وأنه نشأ وتولد من مصادر ثلاثة: انتشار الموالي والمولدين، واستلطاف لكنه الأطفال والأعاجم، والإعراض عن فحولة الكلام وفصاحته، بما جبل عليه الإنسان من اخلاص إلى السهل الميسور، وتفتت من قيود القوانين الحازمة. ولكننا لا نستطيع أن نغفل الآثار التي كانت للمحتلين والمستعمرين في تعميق هذا الاتجاه، ورعايته، ودفعه نحو الرسوخ والاستمرار.

وقد ساعد على ترجيح كفة العامية وتثبيت دعائمها واستحكام سلطانها، أن النتاج العلمي والأدبي الذي أصدره العرب والمستعربون في هذا العصر كان مصبوغاً بألوان هجينة مهلهلة ركيكة، أقبل عليها المثقفون والمتعلمون، فرسخت في أذهانهم وألسنتهم تلك الرطانة، ودمرت ما بقي من فلول العربية الفصحى، وإذا خلا الكتاب أو الصحيفة من الركاقة والهجنة لم يكن في مستوى لغوي رائق، وكثرت فيه الأخطاء والسقطات، ولم يحظ بالضبط المناسب للحروف، فكانت قراءته تزيد المثقفين ضعفاً وانحداراً.

مناهج قلقة

والسبب الثاني الخطير في انحدار العربية الفصحى هو اضطراب التعليم في الوطن العربي، ونعني به ما يسود المناهج الدراسية، والسياسة التعليمية، وأساليب التربية والتعليم، وشخصيات المعلمين، من فوضى وقلق واضمحلال.

فالمناهج، ولا سيما مناهج اللغة العربية، لم تستطع أن تجد لها بعد الاستقلال مستقراً واضح المعالم، جلي الهدف، ناجح الوسائل، تنطلق فيه من مراحل العبودية والاستعمار إلى فسحة التحرر والبناء. وما زالت حتى يومنا هذا تتخبط بين مد وجزر، وتنقل من سيء إلى أسوأ، فالمسؤولون يتعاورون هذه المناهج، ويتصرفون فيها كل بحسب ما تمليه عليه أوهامه ونظراته المرتجلة فيكون تقلقل وتغيرات مستمرة ليس لها ضابط هادف، أو روح عامة موحدة.

العلوم الإنسانية

والسياسة التعليمية في الوطن العربي ليس فيها وضوح يصل مراحل التعليم بعضها ببعض، يجعل كلاً منها متمماً لما قبله وبعده. وهي ما تزال تجاهر بالتكرار للعلوم الإنسانية، والتشجيع للعلوم الطبيعية. وقد أدى هذا، بلا شك، إلى تضعيع مكانة اللغة العربية وما يدور في فلكها من علم وفن. ولهذا ترى جمهور الطلاب، والمتفوقين منهم بخاصة، ينصرفون بجهودهم إلى دراسة الطب والهندسة والعلوم التطبيقية، ويعرضون عن تجنيد أنفسهم وكفاءاتهم لخدمة العربية، فتفقد بذلك

عقولاً فتيّة وقلوباً متعطشة، وقدرات هائلة، ونفوساً مندفعة نحو الإبداع والإنتاج.

التعليم بالعامية

وأساليب التعليم عندنا تغفل اللغة الفصحى، وتجزئ للمعلمين أن ينقلوا العلوم والفنون باللهجات المحلية الدارجة بل إنها لتفرض أحياناً أن يدرسوا بعضها باللغات الأعجمية، وكثيراً ما تنقل اللغة العربية الفصحى إلى الطلاب بأساليب عامية أو شبه عامية، فتدخل عقولهم، وترسخ في ألسنتهم هجينة شوهاء. أضعف إلى هذا أن القراءة الصامتة والهجرية تشجع الطلاب، في شكلها المتبع اليوم، على إهمال الفصحى والتكرار لها، وإتقان الأساليب العامية في التعبير واللفظ والأداء.

وبهذا يقوم في نفوس الناشئة انفصال كبير بين العلم والثقافة والخبرة من جهة، واللغة العربية الفصحى من جهة ثانية، فإذا أرادوا نقل ما في نفوسهم، من تجارب وخبرات وعواطف وأخيلة، لم يجدوا غير العامية أو الأعجمية سبيلاً.

اختبار الذاكرة

والامتحانات، على ما فيها من عناية بالعربية، لم تعط اللغة الفصحى حقها في التقويم والتقدير. فكلنا يعلم ما ظهره مؤسسات التعليم من شروط خاصة لنجاح الطلاب في مواد اللغة العربية بل في نجاحهم العام الذي يرتبط بتلك المواد. وكلنا يعلم أيضاً أن تلك

المظاهر جوف سطحية، لا تدعمها أسس علمية
تخدم تمكين الفصحى وسيادتها.

فالامتحان التحريري يجوز فيه كل
تعبير، وتغفر فيه أكبر الأخطاء وأشنع
التراكيب، ويكتفي فيه بأداء المعلومات دون
النظر إلى اللغة التي أدتها وعبرت عنها. ثم
تكون المساعدات تلو المساعدات لإيقاظ
الراسبين، ودفعهم إلى الصفوف التالية أو
الجامعة أو الشارع والامتحان الشفهي أو
العملي ليس له كبير اهتمام باللغة، وحسب
الناجح فيه أن يجتاز مقاييس اختبار الذاكرة
والذكاء والأداء.

قدرة هزيلة

وشخصيات المعلمين لدينا ينقصها
الوعي اللغوي والاجتماعي، وتشغلها حاجات
الحياة بأثقالها وهمومها. فالمعلمون في
المدارس الابتدائية، والمدرسون في المدارس
الإعدادية والثانوية والمعاهد، والأساتذة في
الجامعات، عندهم كثير من الرواسب اللغوية
المختلفة التي تزيد اللهجات العامية قوة ونماء.
ومدرس العربية خاصة يمثل في نظر الطلاب،
صورة الجمود والجفاف والتعصب، لأنه لم يحظ
بالثقافة الواعية، واللغة العملية الرشيدة،
والنظرة السليمة إلى دور اللغة في التعليم،
وقدرتها على النمو واستيعاب حاجات الأمة في
مراحل حياتها المختلفة. ورجال التعليم عامة
يعيشون في بؤس وفاقه، يعانون مرارة الحاجة
والحرمان فلا يجدون فرصة سانحة للنهوض

بأنفسهم وطلابهم. وحسبهم أن يرمموا بعض
الثغرات المتقدمة، ويقدموا إلى الأمة أجيالاً من
العقول المثقلة، والقلوب العازفة عن فصاحة
العربية وأدبها وعلومها وفنونها.

أضف إلى هذا أن كثيراً من رجال
التربية والتعليم يصل إلى منصبه، ويتسلم زمام
التوجيه والقيادة، بشهادة شكلية من إحدى
الجامعات، أو أحد المعاهد أو الأحزاب، وليس
لديه من الكفايات والإمكانات ما يرشحه لهذا
العمل الخطير.

فإذا علمنا أن مهمة المعلم تربوية قبل
أن تكون تعليمية، وأنه لا يستطيع أن يقوم بها
بنجاح إلا حين يسيطر على قلوب طلابهم
وعقولهم، وينال ثقتهم وتقديرهم لشخصيته
وكفاياته، ويجعلهم ينظرون إليه نظرة الإعجاب
والتقليد..

إذا علمنا هذا كله علمنا أية جريمة
نقترفها حين نهمل شخصية معلم العربية
وغيرها. ونضع أمام أبنائنا قدوة هزيلة في
المدرسة والمجتمع.

تلك أبرز الأسباب التي هدمت صرح
اللغة الفصحى، قد بسطناها في شيء من
الإيجاز، على أمل نعرض لها بالعلاج العملي
في مقالة أخرى إن شاء الله.

ونحن، إذ نعد أنفسنا لذلك، نهيب
بالعلماء والأدباء أن يشاركونا في تشخيص هذا
الداء، ووضع العلاج الناجح له. لعنا نعيد إلى
لغة القرآن إشراقها وسلطانها في العالم
خاصة، والمجتمع الإنساني عامة.



يا شاعر العرب



شعر: عبد الحميد علي - بدوي الساحل

مهداة إلى شاعر شباب العرب الدكتور رضا رجب

يا شاعرَ العربِ الفصاحِ والشعرِ والغيدِ الملاحِ
وفتى عكاظِ الضادِ في عرسِ المنابرِ والصداحِ
أشعلتَ نارَ العبقريةِ في ميادينِ الكفاحِ
وشرعتها عربِّيَّةً في كلِّ رابيةٍ وساحِ
وسقيتها ريًّا شاباك في غدوك والرواحِ
مستلهماً من نبعةِ ألقِ الأصالةِ والصَّلاحِ
ومجدتَ في أمجادها سيرَ الملاحِ والصِّفاحِ
نشوانَ في خمرةِ العقيدةِ يعربيَّ القصدِ ضاحي
يمضي يراعك من نجاحٍ يطمئنُّ إلى نجاحِ
لم يثنه الزهو المبينُ عن التواضعِ والنَّفاحِ
فازدانَ جيدُ الضادِ في نعمى وفائك والسَّماحِ
ونشرتَ عمرك أريحى الحبِّ مطلقَ الوشاحِ
ليُظَلَّ ریحانَ الجنانِ من الهجيرةِ واللفاحِ
وسكبتَ دمعك في مرآشفها شذا الماءِ القراحِ
يا شاعراً زانَ التراثِ وصيَّاه من كلِّ لحي
نزهتَ طهرَ الشعرِ من حمالةِ الخطبِ الوقاحِ
والراغبين ببدعةِ شوهاء من خُددِ السِّفاحِ
المعرضين عَنِ الصَّوابِ العاكفين إلى (سجاح)
يا مبدعاً سكبَ الفتونَ بكلِّ ناعسةٍ رَداحِ
الشعر من عطرِ النبوةِ لا الهجين من المزاحِ





والنسر أغنية السماء يرود يهزأ بالرياح
في ملعب الأقمار في راد الضحى شأو الجناح
إن راح يقلبه البغاث فهل عليه من جناح
(يا شاعري) ونعيم شعرك في العقول كؤوس راح
أسكرت فيه العاشقين وأنت نشوان وصاحي
شملت سلافته الحياة وعالم المرضى الصّاح
أبدعته للزهو في جيد الكواعب والملاح
حلمت به الأجيال فالتفت الصّباح إلى الصّباح
شامت بوجهك سُؤلها ورجائها من كلّ ضاحي
سيجت كرم (أبي المحسّل) بالدراري والأقاح
وجلوت إبداع الخيال وفزت بالأمر البراح
لو عاود الدنيا (نبي) الشعر بالقدر المتاح
لحنا وحيًا واصطفاك على الإمارة والفصاح
ولزان مفرّقك الوسيم بتاجه القمر اللّباح
متكراً للعابثين بإرثه الضخم الصّراح
قل ما تشاء ونح وردد في مداميك السّاح
فعلى شواطئ (غزة) ورمالها وعلى البطاح
ضاعت هوية أمة بين المقابر والأضاحي
وتلبّد التاريخ في الأحداث في ظل الصّفاح
يبكي على أمجاده حرّ الدموع لهن ما حي
أين الشقيق من الشقيق وأين حي على الفلاح
شرع الطغاة عقيدة حي على خير السّلاح
وعلى نجيع بني أبي يتنادمون على اصطلاح
ومن اجتياح كلّ يوم يندرون إلى اجتياح





وإلى متى يبقى الدّمُ العربيُّ بالأمرِ المباحِ
أينَ الأخوةُ والحنوُ على الجوارحِ والجراحِ
وبيادرُ الشهداءِ فوقَ الرملِ والغرثي الطلاحِ
هذي مآتمُ يعربُ غامت على كلِّ النواحي
غاضَ النميرُ فمن يرق على الزغاليلِ الصّباحِ
وكانَ أرضُ العربِ أرضُ الدمعِ صارت للمناحِ
لولا الشّامُ ونهجُها العربي في رَغمِ اللّواحي
وصمودَها الضخمُ المدلّ على العواصفِ والريّاحِ
وعريّتها وزئير (ضيغمها) العريق بكُلِّ سَاحِ
وحفاظه يتوعّد الطغيان في كبح الجمّاحِ
لخلعتُ عن وجهي الحياءَ ورحتُ أقضي في نواحي
ومحوتُ أشعاري وأقلامي وداليتي وراحي
وجعلتُ قلبي مؤلّ الجلى وخاصرتي سلاحي
وحسبتُ عيني لا تُرى وجهي فروّعتني أفتضاحي
سقطَ الحجابُ ومزّق الأوهامُ فجرُ الإِتضاحِ
يا عبقرِي الشعرِ والآدابِ في زمنِ الصّياحِ
لي من بيانك جنة حسبي بوارفها مراحي
خبأتُ كرمك في الضمير على اغتباقي واصطبّاحي
يا حاملاً جمرَ العقيدة أخضراً في طيِّ راحِ
أعطيتَ زهوَ ربّيعك الفصحى وعيشك بالتيّاحِ
عجباً أتُنعّم في الشقاء وأنتَ أنتَ على طمّاحِ
الشعرُ جلّ الشعرُ نبعُ النور في سرِّ القِدادِ
ووهيجُ نَبأ السّيوف على الملاحم والرمّاحِ
أبدأ ستبقى (يا رضا) علمَ الفصاحة والفصاحِ
وعطّور شعرك في النجوم هسيسُ ريحان وراحِ



البنفسج

أرأيتم إلى تلك النجوم المتلألئة في
السماء الرحبية التي لا يحدها أحد، ولا يفصلها
فاصل؟ فالنجمة تلو النجمة والمجموعة بعد
الأخرى من الأقمار والنجوم في كبد السماء
ينظر المرء إليها وعيونه شاخصة ومشاعره
مجندة أمام هذه المعجزة الربانية في السماء،
كذلك ينظر إلى الأرض بالروعة نفسها
والإعجاب ذاته حيث نجوم الأرض من ياسمين
وزنبق وعلى رأسها البنفسج تضيء لأهل
السماء وتثير لهم الأرض ليفرحوا بما يرونه
ويمتعون عيونهم به ولا سيما زهر البنفسج
الفواح.

فما هو هذا الورد على الأرض؟ وما هو
في بطون الكتب؟ وما هو في دواوين الشعراء؟

المعنى اللغوي

فالبنفسج: نوع من الرياحين معروف
(معرب) تكلمت به العرب وورد في الشعر
القديم (شف).

البنفسج وزان سفرجل معرب والمكرر
منه اللامات ووزنه فعمل.

بنفسج: نوع من الرياحين عطر
الرائحة. وهو نبات من الفصيلة البنفسجية من
ذوات الفلقتين الكثيرة التويجات، يزرع للزينة
ولأزهاره (مع) تكلمت به العرب وورد في
الشعر القديم وله استعمالا طيبة.

أصل البنفسج

الأجزاء المستعملة في البنفسج الزهرة
والأوراق.

تحتوي عائلة البنفسج على أكثر من
٢٠٠ نوع تقريبا موزعة بين المناطق المعتدلة
والاستوائية.

ذكر البنفسج في العديد من كتابات
هوميروس ورجيل، وقد استعمل الأثينيون هذه

بقلم:

أحمد الخوص

الزهرة لتعديل الغضب وللزهر هذا مفعول لجلب النوم والراحة.

وفي يومنا هذا يكثر استعمال البنفسج في الأمور الطبية حيث يصنع منه شراب البنفسج.

استعمالات وفوائد زهر البنفسج الطبية

زهر البنفسج ملين لطيف للطبيعة، يعالج أمراض الصدر، السعال والربو، منشط لوظائف الكبد، معالج لليرقان والتهاب الكبد الوبائي، يكافح الرشح والجيوب الأنفية، الزهرة والبذور تكافح انحباس الماء في الجسم وتدر البول وتفتت الحصى والرمل.

تستعمل مستحضرات البنفسج في الطب المثلي، وهو نوع من الطبابة النباتية المعدنية، وفي السنوات الأخيرة استعملت نباتات البنفسج الطازجة عن طريق الفم ولتطبيق الخارجي في علاج السرطانات، وآلام السرطانات، وخصوصاً تلك التي تنمو في العنق والرقبة.

البنفسج في الشعر العربي

أما في الشعر العربي فقد رأى الشعراء العرب أن الزهور والورود من أهم ما يشغلهم في حياتهم ولا سيما زهر البنفسج.

وكيف لا يرى الإنسان النجوم السابحات في السماء ولا يتذكر زهر الأقحوان في رياض البنفسج حيث المشتري تحسبه الزئبق المترجرج وهذا ما عبر عنه أبو بكر الخالدي بقوله:

أرعى النجوم كأنها في أفقها
زهر الأقحاحي في رياض بنفسج
والمشتري وسط السماء تخالته
وسنانه مثل الزئبق المترجرج

مسما تبرز أصفر ركبته
في فص خاتم فضة فيروز

وهذا أبو الفضل الوليد، الشاعر العبقرى الفذ الذي خلق في أجواء الخيال ليمزج الواقع وبما فيه من أفراح وأتراح فيأمل من نفسه أن تصبح زهرة جميلة المنظر حيث يقول:

قبلتها فشامت ورداً أحمر
وضاممتها فهصرت غصناً أخضر
لتنفسي ارتعشت وحين تنفست
عرف البنفسج كم ثوب عطر
فبقيت حتى اليوم من أنفاسها
أهوى البنفسج أملاً إن أزهر
وضعت على قلبي اليدين فأثرت
فيه وارجعت البنان محمراً

أما أبو هلال العسكري فينظر إلى النقوش المرسومة مثل البنفسج نثرها على الفضة حيث يقول:

أنظر إلى النقش من أطرافها البضة
مثل البنفسج منثوراً على فضته
أو خلتها أخذت أطراف خرمه
فنضدته على جمارة عضته

وأما سمعت إلى جرمانوس فرحات يحن إلى الوادي المقدس وعيناه تبتهجان لرؤيته حيث يمر النسيم المعطر أو العطر المنسم فيضئ نوراً وبياضاً ويعطيه البنفسج لون الزرقة فيقول:

أحن إلى الوادي المقدس رعبه
إليه فمرآه لعيني يبهج
يمر به ذاك النسيم معطراً
بزهر به ضياءه متبلج

تردى بثوب من زهور بديعة
يسهمه منها طراز مديح
به الورد محمر وآخر أبيض
وأخضره يزرع منه البنفسج
تراه كطاووس تجلى ورأسه
بالوان باريه العزيز متوج

ويقول أبو الفضل الوليد أيضاً: إنه أحب
من الأزهار زهر البنفسج لما لعطره من رائحة
واللون قد استقر، فكم من البنفسج أصبح باقات
تهدي إلى المحبين العاشقين بعد أن كان وردة
على شجرة جميلة ورائحة فيقول:

وبين حنايا الصدر صوت حبيتي
رنيم هزار في ليالي الهوى صفر
لقد محت الأيام آثار حبتنا
فيما حذا الوجد الزمن العبر
لأنظمها عقداً يليق بجيدها
ولكن ما في القلب أغلى من الدرر
أحببت من الأزهار زهر بنفسج
لها عطره واللون في عينها استقر
فكم باقة منه جئت لصدرها
وكانت كغصن مزهر في يدي انهصر
وإنني لأهواها وأهوى بنفسجاً
ذوى بين نهديها وفي مهجتي نضر

أرأيتها ودموعها مذروفة وقد أذرت من
خلال هذه الدموع الكحل فامتزجا مع بعضهما
وأصبح الخد بنفسجاً بعد أن كان من الورد
وهذا ما عبر عنه ابن معنوق الموسوي فقال:

تبكي وتذي كحلها بدموعها
فيعود ورد الخد وهو بنفسج
لم أدر قبل أرى الدموع بجفنها
أن اللآلي البيض قد تتسج

حتام أطلب للنجوم فأرتقي
وأهم في وصل النجوم فأعرج
وأضل في ليل الغواية والهوى
وبياض شبيبي فجره يتبلج
ما كنت أول مدنف بفواده
لعب الهوى وسباه طرف أدعج
والأم تطمعني الحسان بوصلها
وعهـودهن قضية لا تنج
وأقول إن الدهر يسبح باللقا
ونوى الأحبة كربلة لا تفرج

وهذا ابن طباطبا العلوي يلبس الأجواء
بمختلف أنواعها الثياب الجميلة والنجوم
المتلألئة أو الدراهم فوق أرض بنفسج حيث
يقول:

وكان ثوب الجو صرخ لائح
ونجومه دُرٌّ عليه ترصع
أو كالدراهم فوق أرض بنفسج
أو نرجس من سوسن يتطلع

أما ابن زهر الحفيد فقد نادى العاشقين
متعمداً أن يعيشوا حول البنفسج ويتمتعوا
برؤيته وأن يشموا رائحته فيقول:

كم من خمار دون خمرة ريقه
وعذاب قلب دون رائق عذبه
نادى بنفسج عارضيه تعمداً
يا عاشقين تمتعوا من قريبه

وهذه المرأة الموقرة التي حملت الماء
على كتفها وموجة من الريح تأخذها وثانية
ترجعها إلى مكانها والمطر الهطل مثل الأفواه
المجروحة فما إن طلع الصباح وهدأت الرياح
وضمضت الجراح حتى أصبحت السماء صافية

وظهر البنفسج ممزوجاً بالندى وقد تفتح فيه
نور الأقحوان. يقول ابن المعتز:

وموقرة بثقل الماء جاءت
تهادى فوق أعناق الرياح
فجاءت ليلها سحاً ووبلاً
وهطلت مثلاً أفواه الحراح
كأن سماءها لمّا تجلّت
خلال نجومها عند الصّباح
رياض بنفسج خضل نداءه
تفتح بينه نور الأقحاحي

وابن الساعاتي بخياله الواسع وشعره
الأخاذ قد فضل بنفسج الليل على ورد الشفق
فقال:

ومقلّة مالي بها من مقلّة
يدّ على طول البكاء والأرق
لولا خيالات الدجى ما فضلت
بنفسج الليل على ورد الشفق
يا راقدين ورقادي بعدهم
أخو الهدوء مدّعي أو مسترق

ويتحدث هذا الشاعر نفسه عن البنفسج
والنرجس وعن الأدواح والجداول التي تجري
في جنة الله على الأرض في دمشق الشام في
دمشق التاريخ والحضارة فيقول:

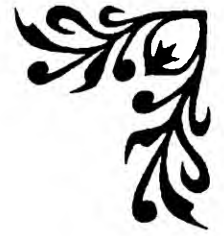
ما جلق الفيحاء إلا جنة
فضلها وحي الغمام المنزل
كم نعيم للغيت في أرجائها
يفصح عنها سهاؤها والجبل

بنفسج مثل الخدود قرصت
ونرجس ما هو إلا المقل
بكى الغمام فالتري مبتسم
ورقص الدوح فغنى الجدول
كم جدول باكره مر الصبا
فهو نسيم والحسام صيقل
وبعد كل ناشق لا سامع
ما حدثت عن الرياض الشمال

وإن الزمان القريب ستعذر عن هذا
البعاد المغفور بعد القرب والاقتراب وها هي
أزهار البنفسج تخبئ الشفق حباً وتحناناً عليه
وها هو نرجس الزهر منشور في كل مكان.
يقول الشاعر حسن الطوبراني:

ناديته وزمان القرب معذّر
عن بعده وهو بعد القرب مغفور
بنفسج الليل ضمّ الورد من شفق
ونرجس الزهر مثل الزهر منشور
فعاطني فعزّز العمر ما سمحت
به الليالي ولم يهمله تقصير

وهكذا نرى أن البنفسج هدية سماوية
إلى الأرض. فكما أن النجوم في السماء مع
الشمس والقمر تضيء الأرض في كل منطقة،
وفي كل مكان فإن زهر البنفسج مع صغر
حجمه ولونه الداكن فإنه عندما يظهر الربيع
يرسل أشعته الأرضية لينير السماء بوساطة
أقواس القزح الجميلة الألوان والمتناسقة
الخطوط المتساوية الأبعاد لأنها جنة الله على
الأرض أينما وجد هذا البنفسج.



افتراضات..

شعر الدكتور: سعاد الصباح

إذا ما افترضنا..
إذا ما افترضنا..
بأنك لست حبيبي
فماذا أكون..
وماذا تكون..
وكيف أقولُ بأنِّي أنثى..
إذا لم أخبئك تحت الجفون..
وما قيمةُ العشق، يا سيدي
إذا لم يُسافرْ ببحر الجنون؟
إذا ما افترضنا..
إذا ما افترضنا..
بأنك لست حبيبي
فما هو معنى الحياة؟
وكيف تدورُ الشَّموسُ بدونك..
كيف يجيءُ الربيعُ بدونك..
كيف ستعلو السنايل..
كيف تُغني البلابلُ
كيف تفيضُ الجداولُ؟
كيف سيطلعُ من شفتينا النَّباتُ؟
وهل تستمرُّ الحضاراتُ؟





والشَّعرُ..

والرَّسمُ..

والنَّحتُ..

هل تستمِرُّ اللغات..؟

* * *

إذا ما رفعتَ ذراعيكَ عني..

وسافرتَ يوماً،

فكيفَ سيُصبحُ شكلُ المكانِ..؟

وكيفَ أواجهُ كلَّ الشؤونِ الصغيرةِ، حولي؟

وكيفَ أقاومُ رائحةَ البُنِّ؟

كيفَ أقاومُ لونَ الفناجينِ؟

كيفَ سأمسحُ دمعَ الفساتينِ؟

كيفَ أقاومُ رائحةَ التَّبغِ؟

كيفَ سأهربُ من حلقاتِ الدُّخانِ؟

وكيفَ أحدِّقُ في ساعةِ البيتِ

بعدَ رحيلك..

يا مَنْ سُرقتَ الزَّمانُ؟؟

أسأِّلُ نفسي:

إذا ما ذهبتَ

إلى أيِّ يذهبُ ضوءُ القمرِ؟

ومنَ أجلَ مَنْ، ستُضيءُ النجومُ؟

ومنَ أجلَ مَنْ، سيفوحُ الزَّهرُ؟





وَمَنْ سَيُمَشِّطُ بَعْدَكَ شَعْرِي؟
وَمَنْ سَيُمَشِّطُ شَعْرَ الشَّجَرِ؟
وإن جاءَ تشرينُ..
مَنْ سَيَطَوِّقُ خَصْرِي...؟
وَيَعْصِمُنِي مِنْ مِيَاهِ الْمَطَرِ..؟

* * *

أيا رجلاً..
يتجولُ بينَ خلایای..
مثلَ القضاءِ..
ومثلَ القدرِ..
أَسْأَلُ نَفْسِي:
إذا ما استقلنا مِنَ الْحَبِّ يوماً
فَمَنْ سَوْفَ يَرَسُمُ أَلْوَانَ قَوْسِ قُزَحٍ؟
وَمَنْ سَوْفَ يُوقِدُ نَارَ الْغُرُوبِ؟
وَمَنْ سَيُحَرِّكُ شَوْقَ الْوَتَرِ؟

* * *

إذا ما افترضنا..
إذا ما افترضنا..
ولستُ أَحِبُّ افتراضي..
بأنكَ لستَ حبيبي..
فَمَنْ يَمَلَأُ الْكَوْنَ شِعْراً جَمِلاً؟
وَمَنْ سَيُجَمِّلُ أَرْضَ الْبَشَرِ؟؟



في مدن الخطيئة والعجز الوطني..
تتناسل الخطايا برزخاً من رعاش الرغبات الحبيسة
بين منعة السماء وزلق الصلصال.
تتعاوى أذوب الشهوات المتوحشة في هواجل
النفوس فتنهمر وإبلاً من هشيم الخيبات.
في مدن يسهر عمال النظافة على قذارتها، وتزدرد
فنادقها ذات النجوم عهر مجونها في لجة صمت خجول
أخرق يتغنى بما قد كان.
في مدن تزدحم مراقصها وملاهيها، ويتفاسم
حدائقها وساحاتها السكارى والمدمنون والعاطلون عن
العمل.

في مدن التابوهات المحرمة والطواطم المقدسة
ورهاب الكلمة والفكرة والحسرة ونشيج القلب تختنق
الصرخات وتتيسب اللهاء.
في مدن الفرع الأكبر وأصنام الجص تتناسخ
الأرواح مسوخاً من هيولى العدم وهي تهيم في لا
زمان ولا مكان.

* * *

كمجوسي بائس راح يضرم حطام الذكريات رماداً
في سدفة حلم وردي علّ الأمل يشظي ما هو آت دماً
وقلوباً ونجوماً وأهازيجاً وريش حمامة.
الدراجة العجوز وأكياس الخيش والكوفية الحمراء،
ثالوث الشبهات والنظرات الجارحة والأسئلة الصامتة
المتعالية تتوارى لثاماً محكماً كرأس نعامة مدفون في
الرمال وحركات خاطفة لا مبالية لا تعباً بفضول
العابرين.

* * *

كان البدر في ألق بهائه يجندل أشباح الضياء
شعاعاً واجفاً يجاهد أن يخاتل تشابك أغصان الأجمة
في محاولة بائسة لتعويض فداحة غياب الشمس عن
قبة السماء.

وكانت ذوات الأرجل المتعددة تيمم أديم الصلصال
في دعة وطمأنينة زائفة تارة تحت جناح ليل حالك بهيم
وأخرى تحت بهاء شعاع حسير خجول في غفلة بكماء
من عمر بوّس الغابة العجوز.

* * *

لا أحد يعلم من أين جاء ذلك الشيهم، لكن الكل
مجمع بأنه مسكون بغرائز الامتلاء والجنس والبقاء.
تقدم الشيهم القمام الجائع في غلالة جلبة مفتعلة
من عبثية الامتلاء وعدم جدوى البقاء الغرائزي، لكنه

قصة

رجل

الناوية

بقلم:

علي إسماعيل السليمان

تواطؤ الغرائز مع حاجات الجسد يحيل إلحاح المعدة لعباً سائلاً وإقداماً يصرف الحواس عن كل متربص في مملكة الظلام.

كان الشيهم يغذ السير في كل مكان باحثاً عن بقايا فريسة، أو جيفة عفنة تركها وحش متخم هنا أو هناك ولكن دون جدوى.

* * *

أكياس من هلام نتن والمدينة - الغاب تضن حتى بقذارتها..

* * *

كان الشيهم يعلم أن ثمة قوى خفية تسري في سكون الغابة، تلون الصمت المهيب بنوع من الرهبة القدسية والأسئلة الحائرة المبهمة المعلقة على جدران عدم التوقع، لكنها بلا شك قوى خيرة أو ربما ظالمة تنتظم علائق الأشياء وتخلق المناسيب المتغيرة طراً لكل حالة على انفراد في نظام فائق يسعى فيه الخطأ إلى العدم، إنما إلحاح المعدة وما علق بجسمه من طفيليات لا ترى لكنها على صغرها تهتك أغشية النسيج الحية وتنفذ حتى نوى خلاياها معدلة أحماضها الوراثية بحمة القرم وشهوة الدم والطين، فكانت بعملها الدائب الرتيب تشكل سداً منيعاً في وجه نزوعه الغريزي للحكمة والتبصر.

صاح متربص ما في مملكة الظلام: "أطعموا البائس الفقير" فاتحسر الصوت وجيباً مختنقاً خلف الغصون المتشابكة.

* * *

في الحديقة - والحديقة غابة مهذبة - كانت أشجار السرو والصنوبر والكينا والسنسرخت تنتصب بقاماتها الفارعة مظلة جزراً من عشب معصفر كأنه طفل قد أدركته عوارض الشيوخوخة على حين غرة وهو يمرح في الجنان فقبع مستكيناً بانتظار ملاك الموت، وكانت الشمس قد صبغت ضفائرها الذهبية بورس محنى كعجوز متصابية تحاول إخفاء عوارض شيخوختها بالحناء والمساحيق وترحل متبرجة في رحلتها اليومية - من المهد إلى اللحد - في زرقة سرمدية.

كان الصمت يخيم على المكان على غير العادة، وكان الجو يعبق برائحة غريبة تتخلل روائح الصنوبر وزهر الأكاسيا والزهور الملونة المتناثرة في المكان، لم يستطع تحديد كنهها أو ماهيتها ولكنها إلى حد ما كانت تشبه روائح الفناء التي تهب من مكان ليس

ببعيد، ربما مقبرة جماعية أو زنازين مظلمة تسكن جوف الأرض، حيث كان كل شيء يوحى بقرب ارتطام مذب هائل بسطح الأرض حاملاً معه الصقيع والجليد القذر إلى حنايا اللاشعور، أو ربما قوالياً بكرأ من مواد عضوية وأحماض أمينية ترسم أغشية خلوية براقة لحياة جديدة تعبق برائحة مليارات السنين منذ النشأة الأولى لهذا الكون، عشية الانفجار البدني الكبير.

* * *

اختار مقعداً خشبياً قديماً وسط الحديقة تعلوه نخلة قرمة وراح ينظر برثاء إلى أغصانها المتكسرة المتهالكة على جانبيها والعراجين الفارغة الذابلة المتدلية من أعلاها، فاستفزها تطفله وحشريته فصرخت بحنق ومرارة: "هؤلاء الحمقى! قد غربوني عن بلادي وجاؤوا بي إلى بلادكم، بلاد القر والزمهرير، وهأنذا كما ترى أعيش حياة ملأها الزهد والتقص كناسك بوذي هزيل يتوقع على بؤسه بحزن ومرارة فيظن الناس بأنه يمارس رياضة فكرية غامضة ويتخلق حوله الفضوليون والمتسكعون ويرمقونه بعيون الدهشة ويطرونه بشهقات الثناء، أمد سعفي باستجداء إلى الشمس المتبرجة في حومة قيظها فلا تمن علي إلا بالنذر اليسير من دفنها فأرسل سعفي متحسسة جذعي كامراً عاقر أصابها هوس الحمل الكاذبة وراحت تتلمس بطنها في كل لحظة أملاً بنبض قلب وليد يشج أحشاءها ولكن دون جدوى، فيغتال الصقيع سعفي المتدلية ويهشمها".

* * *

صور مشوشة وحوارات متهدجة "الأسرة" بدأت تتسرب من سراديب الذاكرة فتنعكس طيوفاً لولبية متداخلة وطنينا يصم الآذان، حناجر أتعبتها الشكوى وعيون مترقبة حائرة وثرثرات أطفال بلا معنى عن كائنات أسطورية تتسلق جدران الأبنية العالية وتحلق في سماءات المدن الكبرى، تظهر وتختفي بلمح البصر، تخرق قوانين الطبيعة وتتعالى عليها، تحضر عند الرمق الأخير وقت الكوارث والأزمات الكبرى لتنقذ الجنس البشري المهدد بالفناء.

لوحة سريالية جماعية يحاول كل طفل منهم رسم مشهد فيها لتخرج للعالم مذيلة بعدة توافيع معيدة إلى الأذهان تلك الإحباطات المغرية لمرحلة السحر التشاكلي في فجر التاريخ الإنساني.

* * *

كانت الحركة قد بدأت تدب في الحديقة، نساءً ورجالاً وضحكات أطفال مرحة، سيقان عارية وملابس ملونة تزركش لوحة الطبيعة بمزيد من الألوان والزخارف.

المقاعد الخشبية التي امتلأت برواد الحديقة بدأت تنشر في الأجواء رائحة الحياة في جدلية فريدة بين البقاء والفناء.

اقترب رجل ستيني من مقعده، كان يلبس بذلة رسمية وشعره الفضي مصفف بعناية فائقة، رمقه بنظرة عابرة وشد حجلي سرواله وجلس بهدوء في الجانب الآخر من مقعده وهو يهمس بصلف: "متشردٌ قذرٌ"

تحت ياقة سترته الرسمية كان يرى حزام جلدي عريض بدا كأنه حمالة مسدس وقد علقت عليه أشياء تشبه حجاباً أو تمانماً بألوان متعددة وعيناً بلاستيكية زرقاء صغيرة ربما لدفع عين الحاسد أو لمأرب أخرى. لاحظ الستيني القادم من ضجر المكاتب والكلمات المتقاطعة نظرات الرجل الفضولية فبدأ عليه بعض الامتعاض وأشاح بوجهه إلى الجانب الآخر وراح يتذكر ماضيه الوظيفي القريب: "صخب المراجعين في صباحات المكاتب ورائحة القهوة الصباحية وفقهات الموظفين الغنجة وتعليقات الزملاء عن مصطلح أطلقوه حديثاً -مافيا الجباة- والأدراج نصف المفتوحة التي تلقى فيها الرشاوى والعمولات في صمت رزين وإيماءات عيون... السطوة والسلطة والـ كن فيكون، فنظر إلى الأفق بحسرة ومرارة بادية وراح يقلب ناظريه دونما تركيز فبدأ وكأنه يحاول استعادة صفاء مفقود، فيما الآخر كان يحاول بسكينة مفتعلة وبشيء من الدهشة وعدم التصديق تدبر فكرة ألقيت في روعه للتو "وطن حاوية" حدوده علب التونة والسرددين المستوردة الفارغة ونفايات سامة مشعة، مروراً بمسوخ آدمية عديمة النفع لا قيمة لها، فبدأ باستغراقه وبأمارات الحيرة والدهشة والقلق والشعور بالذنب التي ارتسمت على وجهه دفعة واحدة كفلاح بنغالي فقير يرى مياه الغمر في دلتا نهر "البزاهما بوترا" وهي تبتلع حقله البائس بعد ذوبان جليد مجمدة "كشمير" على سفوح "التيب" وارتفاع منسوب مياه المحيطات في الأرض المحرورة التي أسكنها جشع أبنائها بيوتاً من زجاج الكربون.

* * *

عندما كان الستيني في بداية حياته الوظيفية التي بدأها متأخراً أصلاً بسبب إخفاقاته المتكررة في الامتحانات الجامعية واستنفاده جميع الفرص المتاحة من دورات عادية واستثنائية ومراسيم جمهورية حتى الرمق الأخير حيث تمكن بصعوبة في النهاية من التخرج بدرجة مقبول وعين مسؤولاً عن سكن البنات الجامعي في "جامعة الوليد بن عبد الملك" بصفته خريج علم اجتماع وقد اختير من قبل السلطات المعنية بعناية فائقة حتى لا تتكرر مأساة مدرسة البنات الحربية في ضاحية "الكبرياء" وكان بالفعل يبدي في أقواله وتصرفاته ولهجته الريفية المحببة طيبة وبراءة ومودة مبالغاً فيها لمحدثيه وكان يكثر من الحديث عن العفة والشرف وأخلاق القرية والصالح العام والتضحية والمبادئ.

وكان يشاهد بشعره الفضي المميز في الاحتفالات الرسمية وحملات النظافة والتشجير والتزيين في المناسبات.. بينما في قرارة نفسه كان يعتبر تلك الوحدات السكنية البائسة بمثابة مملكته الصغيرة بمخصصاتها المالية والعينية ونزلياتها حيث يعطي من يشاء ويمنع من يشاء وكيفما شاء بمقدار ما تتيحه ثغرات القانون وإمكانات التلاعب والتزوير وفي إطار من المشروعات الظاهرة والتعليقات المختلفة المواتية لكل تصرف على حدا.

أما النزليات فكان يعتبرهن بمثابة الحرملك الخاص بجلالته وخاصة أولئك القادمات من القرى النائية في سفوح الجبال وفي أحضان الغابات المطيرة التي تنقي الأجواء من غبار الفبارك الإيطالية وتثقل كاهل السحب بأبخرة نتحتها لترغمها على إرواء البوادي والبسابس المقفرة، حيث تلد الضباع تحت أشجار الجوز عندما تتعقد الثمار بعد قرون الاضطهاد فتتقطع بهن السبل في زحام المدينة وتختلف أنماط الحياة وتتغير المعايير الأخلاقية وتتأخر إمدادات الأهل الفقراء أصلاً فتتخلى بعضهن عن عفتن مقابل الاستمرار في نفقات الدراسة وبعضهن بدافع الفضول والاستكشاف في غياب رقابة الأهل وبعضهن استجابة لنداءات الأمومة الجامحة مساءات الشبق العارم وبعضهن أيضاً بهدف استمالة الكادر التدريسي أو الإداري للحصول على بعض الامتيازات أو الدرجات في المواد النظرية المعقدة أصلاً، فيما البعض الآخر وهن الغالبية بالطبع يقاومن الإغراءات والمضايقات في الحرم والسكن

الجامعي والأنفاق المحيطة بالجامعة حيث كن يشاهدن وهن يصهلن بأنفة وكبرياء كأفراس برية عصية على التدجين.

وقد كان على من يتصفح سجلات السكن الجامعي أن يمتلك خبرة واسعة في حل الألغاز والأحاجي ليعرف مدلول الشين الحمراء الصغيرة التي كانت تتكرر كثيراً في جوار الأسماء المسجاة عمودياً وأفقياً كجثث متصلة في ثلاجات مشافي القلب في هذه الأيام في القوائم الطويلة لأسماء النزيلات حتى يعلم أن المقصود بها هي كلمة "شموس" حيث كان هذا الحرف بمثابة لوحة تنبيه كتب عليها "ممنوع الاقتراب أو التصوير" كتلك التي توضع في المناطق العسكرية الحساسة لاستبعاد المتلصقين والفضوليين وبالطبع كان يضع هذه الإشارة بجانب اسم كل نزيلة لا تغلح معها لعبة العصا والجزرة إثر استدعائها إلى مكتبه بعذر واه فيعمل على التنكيل بها في كل مناسبة ومن دون مناسبة، حتى جميلة التي اضطرت للبيات في شقة يسكنها ستة شبان جامعيين من أبناء قريتها وهي تردد بيت البحري:

وقديماً عهدتني ذا هنات

آيات على الدنيات شمس
حتى تكمل امتحاناتها الفصلية إثر فصله إياها من السكن الجامعي بدعوى تأخرها بالعودة ليلاً إلى السكن الجامعي عندما كانت تعد حلقة بحث حول كتاب طبائع الاستبداد للكواكبي لدى إحدى زميلاتها في أحد الأحياء الشعبية في المدينة حيث لم تغلح جميع تزلقاتها وملقاتها ودعائها له بالعمر المديد والصحة والمراتب العليا بحمله على العودة عن قراره المبدئي الحازم هذا بالرغم من الشائعات التي كانت تترد بين النزيلات عن سيارات التاكسي الصفراء التي كانت تتوقف أمام باب السكن في هزيع متأخر من الليل وعن الأسرة والوسائد الخالية حيث تبين فيما بعد قيامه بمحاربة بعض المسؤولين بإرساله بعض جواريه لإحياء الليالي الحمراء في استراحاتهم الفارهة خارج المدينة وقد تحدث غير مرة وتحت تأثير النشوة الطارئة التي تحدثها ويسكي "البلاك ليبيل" عن هدف استراتيجي بعيد أسماه: "خلق أوليفرشة طغمة مالية سلطوية لحمية" عمادها الأجساد الفتية البضة يشد بعضها بعضاً كذرات الفولاذ الحر في سيف مهند ماض مرصع بأحجار كريمة باهظة الثمن فيما فقراء البنجاب بشعورهم

ولحاهم المسترسلة وعمائمهم الزاهية يتسولون الدوائق في أصقاع الأرض ، وقد كاد الأمر يتحول إلى تجارة رابحة لولا ظهور الشرطي جركس على مسرح الأحداث في السنة التي حدث فيها الكسوف الكلي لقرص الشمس، حيث فشلت كاميرات الإعلام الرسمي بالتقاط اللحظة النادرة عندما استرعى انتباهها الخلل الفادح الذي أحدثه الكسوف بالساعة البيولوجية للحيوانات الداجنة حيث أوت الأبقار والحمير والتيوس والدجاجات إلى مساكنها في وضح النهار وبالطبع تم استرداد اللقطة النادرة من كاميرات الوكالات العالمية بأثر رجعي، في هذا العام بالتحديد كلف الشرطي جركس بخفارة أسوار المدينة الجامعية ليلاً إثر سرقة جهاز كمبيوتر وبعض الأموال والمستلزمات من مكتب مسؤول السكن ذي الشعر الفضي وقيام أحد اللصوص بالتغوط على طاولة مكتبه، حيث تمت العملية عن طريق إحداث ثقب كبير بالمهدات الثقيلة في السور أثناء إحدى المسيرات الليلية بالمشاعل والأناشيد الحماسية.

* * *

جركس الذي كان يشاهد بسروال "المارينز" ذي الجيوب المنتفخة و"التيشرت" السوداء التي طبع عليها صورة "كليب أرت" رديئة لتشي غيفارا" مع بعض العبارات الأسبانية غير المفهومة و"الفيلد" العسكري في أيام الصيف القانضة في قريته حيث كانت تتدلى من أسفل حزامه الجلدي العريض حلقة معدنية لامعة يسميها رجال الشرطة بـ"الجامعة" ويسميها هو برطانة تركية "كلبشة"، حيث كان شبان القرية يختبئون خلف أشجار السرو ليشاهدوا بسخرية مكتومة معاركه "الدونكيشوتية" مع أشباح عتاة المجرمين بين أشجار اللوز والزيتون قبل أن يعتنق سلك الشرطة عقيدة وممارسة بوساطة مجدية من أحد أسلافه الذين خدموا بالنار والحديد حكومات الانقلابات المتعاقبة، وعندما تسلم عمله الجديد حول أسوار المدينة الجامعية بعد خدمته لسنوات في الأرياف استطاع وفي أيام قليلة بحسه الجنائي العالي وإخلاصه المهني إدراك أبعاد المشكلة فعمل على تحرير تقارير سرية لمسؤولين رفيعي المستوى في العاصمة بعد تيقنه من فساد بعض المسؤولين المحليين وعجز أو لا مبالاة الآخرين، وبالفعل استطاعت تقارير الشرطي جركس فضح الموضوع وأوقفت لجنة تقصي حقائق من العاصمة

لدراسة الموضوع، وعندها تدخلت الوساطات والمحسوبيات وتقبل الشوارب والذقون لمنع عرض الفتيات اللاتي لم يشر إلى أسمائهن بالشين الحمراء الصغيرة على لجنة من الأطباء الشرعيين ولفلف الموضوع بنقل مسؤول السكن ذي الشعر الفضي إلى إحدى الدوائر المالية واستبداله بآخر بشعر رمادي و تكليف الشرطي جركس بحل موضوع سرقة دجاج الفلاحين في قرية "عين الحنش" على مرمى قذيفة هاون من حي "وادي السلور" المسكون بلغة "تمو" على أطراف "خالصة"، حيث روعت هذه القضية الفلاحين الآمنين وكادت تتحول إلى قضية رأي عام لولا حكمة العريف جركس الذي رقي بعد أن قبض على أحد اللصين والذي يدعى "مرعي اللقلق" وهو "باطولي" عاطل من أهالي عين الحنش فيما لاذ الآخر والذي بقي اسمه في محاضر الشرطة وبعد أن أقفلت جميع المحاضر "أبو دجاجة" - والذي ربما سيظهر فيما بعد في مكان آخر - حيث كان أبو دجاجة هذا يغري مرعي اللقلق بسرقة دجاج الفلاحين وشبه وشرب العنبري على ضفاف "سد السرسوقة" الموشك على الانهيار والذي شيد بالكامل بخبرات وطنية، حيث كان مرعي اللقلق يتكفل بذبح الدجاج أو خنقه وتنظيفه وشبهه على أنغام نشاز تتناهى من مقصف "ابن الباشا" - الذي أدمن ذو الشعر الفضي على ارتياده بعد نقله إلى الدوائر المالية - في الجهة المقابلة من السد، حيث كان صوت وصال النورية يشوب الشينات الكثيرة في بيت الأعشى الشهير:

وَقَدْ غَدَوْتُ إِلَى الْحَانُوتِ يَتَبَعْنِي

شَاوْ مِشَلْ مِشَلْ شَلُولْ شَلُولْ شُولْ

الذي لا يمل أبو دجاجة من تكراره على مسمع من مرعي اللقلق الذي يطرب كثيراً لجناساته الناقصة وإيقاعه الساحر وتكرار شيناته مع أنه لا يفهم منه شيئاً.

وقد تمكن رجال الأدلة والبصمات في الأمن الجنائي من رفع بصمات مرعي اللقلق وأثر أياها أخرى من غير بصمات عن زجاجات العنبري الملقاة كيفما اتفق في جوار السد وتمكنت أيضاً مخابر البحث الجنائي بعد تحليل عينات الـ"دي إن إي" من الدهن المتراكم على أحجار المشوى البدائي ومقارنتها مع عينات الـ"دي إن إي" من البيض المتبقي لدى الفلاحين من إثبات واقعة السرقة الموصوفة بالدليل القاطع، حيث لم يجد

مرعي اللقلق الذي عرض على جهاز كشف الكذب غير مرة مناصاً من الاعتراف بالسرقة وتهما أخرى تتعلق بالتسكع والتشرد والإخلال بالآداب العامة بتعاطي المسكرات علناً خارج أسوار مقصف ابن الباشا، وقد تم ترحيله إلى السجن المركزي بانتظار محاكمة عادلة، وعممت أوصاف أبي دجاجة في النشرة الشرطية على جميع الأقسام في البلاد، وما زال البحث مستمراً.

* * *

أما رجل الحاوية الذي تخرج من إحدى المدارس الصناعية مسلحاً بمهنة خراطة و تسوية المعادن التي هي كما قال معلموه اللبنة الأولى في حضارة الفولاذ حيث كان يشاهد وهو يتصفح على عجل نوطات رديئة كتبت بحبر أسود كالح من جراء تكرار نسخها بالماسحات الضوئية المستهلكة حيث تخرج بعدها بتقدير جيد مع أنه لم ير مخرطة في حياته وشوهد بعد ذلك بين يدي قريبه "الكولونيل" صاحب الاستراحة الملكية في جبل "مجدوع" والمفاحم الشهيرة في "وادي البطم" التي تمدكم بفحم نراجيلكم التي تفوح منها روائح التتباك المعسل بفاكهة لم تسمعوا بها في نهارات ضجركم الطويلة.

شوهد بعدها بكوفيته الحمراء المميزة مع عصبة من أشباهه يطل من مقطورة حديدية يجرها جرار زراعي وتجر من خلفها جبالة بيتون بدائية بعد أن تذر قريبه الكولونيل صاحب الاستراحة الملكية والمفاحم الشهيرة من إلحاحه الذي يشبه الاستجداء في طلب وظيفة حكومية وأرسل حلقات رمادية متعاقبة بدأت صغيرة ثم كبرت وكبرت حتى أُلشت بين الثريات الكريستالية البديعة من سيجاره الكوبي الفاخر الملفوف على سيقان العذاري وصغر خده وزم شفثيه وهو يقول: "ما بالكم أنتم الخريجون الجدد؟ تحسبون الدولة مزرعة أبيكم؟ أين روح المبادرة والقدرة على الخلق والابتكار؟ ألم تسمع بالرجل الأمريكي الذي أسس مع ثلة من الهواة شركة صغيرة للبرمجيات، ما لبثت أن أصبحت أكبر شركة من نوعها؟ وهاهو الآن أغنى رجل في العالم.. دعه يخترع.. دعه يمر!!".

و شوهد بعدها كطيف باهت ببذلة رسمية في طقس قطيعي في صدر صيوان ضخم خلف طاولة واطنة ممتلئة بالورود إلى جانب فتاة غضة بفستان أبيض وحلي ذهبية قائمة بين جموع بشرية هائجة وموسيقى صاخبة بعد أن ازدهرت مهن البناء في الأحياء الشعبية

والعشوائيات التي كانت تحضر جميلة فيها مع زميلاتها حلقات البحث حول كتاب "طبائع الاستبداد" وبدا المستقبل لوهلة روضاً ندياً ومن ثم توقفت جميع الجدران المتطاولة بشكل غامض عند السقوف.

شوهدها بعدها يدفع بعربة واطئة كتلك التي يستخدمها العتالة العجائز في سوق الفلاحين يبيع الملح الصخري غير الميود بعد أن رفض العمل بجمع النقطة من بين السيقان العارية لعضوات جديديات في نقابات الفنانين على مسرح مقصف "ابن الباشا" عند أقدام سد السرسوقة الذي ألح عليه جاره ابن حفيظة الطبال ذو الشعر المنشى "بالجل" والذي يلعب بالأسنان بقبوله درءاً لغائلة الفاقة بعد أن سدت جميع الأبواب، حيث شوهده غير مرة يدفع بعربته الحديدية الواطئة في الأزقة والحارات وبجانب الأطفال الذين يلعبون السدح في الأزقة الضيقة المعتمة وكرة القدم الشارعية في الشوارع المكتظة والساحات الترابية الممتلئة بالقاذورات حيث كانت عزرات الشيخ "صوان" المنذورة للأولياء الصالحين تحاول قضم أكياس النايلون المتشابهة الممتلئة بكميات متساوية من الملح وكان يبعدها برفق كرمي للأولياء الصالحين، وكان نداؤه الرتيب المكرور "للمونة يا ملح" يخترق الآفاق ويقض مضاجع السكان في أوقات القيلولة ويفسد تركيزهم في ظهيرات الشبق اللاهبة حين ترتدي النزوات المشروعة لبوس الإحرام القدسي وينقب الخيال العبقري خلف مواشير الذاكرة عن وقود أحفوري للنشوة.

شوهده بعد ذلك في مسلسل تفهقره على درجة جديدة من سلم "دارويني" مقلوب يدفع بعربة خشبية، يبدل الكراسي البلاستيكية المكسورة بأخرى جديدة مقابل خمسين "مصرية"، ثم وهو يشترى أوانيك المستعملة وأشياءكم الثالفة قبل أن ترمى في القمامة، حيث أوقف عربته في وسط الشارع العام ليرفع كسرة خبز رميت في مواطئ الأقدام ويقبلها ويرفعها إلى رأسه ومن ثم يضعها في ثقب في جدار إلى جانب سن لبني وضعه طفل في السادسة وهو يقول: "يا حيط خذ سن الجحش واعطني سن الغزال"، ليلتفت بعدها فيجد العربة في سيارة نقل كبيرة مجهولة "الماركة" ربما خاضت الحرب العالمية الأولى مملوكة للبلدية غباً الحملة الشعواء التي شنتها البلدية على "طنابر" النور "البوهيمين" المصنوعة من براميل القطر الإفرنجي الصدنة التي تجرها الحمير الهزيلة بدعوى تشويه

المنظر السياحي والحضاري للمدينة، حيث كان بعض النور ممن فشلوا في تعلم مهنة صناعة الأسنان أو صناعة الطبول والدقوف من جلد الماعز ورفضوا التطبيل والتزмир والرقص في المقاصف والأعراس وملوا من بيع المصنوعات الخشبية اليدوية من نايات ومسابع وسيوف وأيقونات بعد أن غرقت الأسواق بالبضائع الصينية الرخيصة قد عادوا إلى أصولهم الرعوية فاتخذوا من الساحات والعروضات المكشوفة المقفرة وطناً نهائياً لخيامهم ومواشيهم وراحوا يجمعون بقايا الخضار والفاكهة التي تنبعث منها روائح خانقة من المحلات البائسة في الأحياء والأسواق الشعبية طعاماً لهم ولمواشيهم في غياب الكلاً والمرعى في وطنهم الاختياري الجديد لتقول امرأة شابة منهم بوشم متعدد الألوان حول ذقنها وبرطانة واضحة وهي تهز زمام حمارها وتهم بالرحيل وتقاوم رغبة قسرية في البكاء ممتزجة بتعبير يشبه محاولة احتيال ساذجة كتلك التي يشتهر بها عادة النور: "نحن اسمينا بالنور لأننا اشتققنا من أنوار النبي ﷺ وأنتم تنظرون إلينا باستصغار واحتقار وتعاملوننا على أننا بشر درجة ثانية أو ربما حيوانات وحتى فيما بينكم فإنكم تمارسون شتى أنواع التمييز الطبقي والإثني والطائفي والقبلي بل وربما العائلي وتنشدون العدالة من الدول الكبرى وتنظمون المؤتمرات الدولية لمناهضة التمييز العنصري في الجزر النائية" ومن ثم تطلق ضحكة شامتة وتغادر مسرعة وكأنها قد ألقت بقبلة موقوتة.

وقبل أن يشاهد لآخر مرة بدا بكوفيته الحمراء ودراجته "الهركل الإنكليزية" المتهاكة وأكياس الخيش في يديه منكبا على إحدى الحاويات في حي راق تتناوشه كاميرات الصحافة الصفراء ليظهر في اليوم التالي على الصفحة الأولى في "الديلي تلغراف" أو "الأوبذيرفر" كنجم للبؤس بوجه مطموس المعالم من بلاد الأبعد هوز أو بالأحرى كسلعة رخيصة يروجها تجار عذابات البشر بوجههم الكالحة كنوطات المدارس الصناعية ألسنتهم التي ترطن بالإنكليزية "الكوكنية" أو بلكنة رعاة البقر بديمقراطية مستوردة على صهوات "الإبراهامز" تفوح منها حمامات الدم وأعراس النجيع.

* * *

"أنا أدري بان وحدنا في الليل..

وجه أخي ومرآتي

وأنا تقاسمنا دموع الأنبياء معا

وغدر الأخوة الأعداء
تقاسمنا المذابح والحروب معا
وظل لنا البقية.. للقصيدة
والهوى الليلي
ظل لنا.. رعاف الشمس
بين الرمل والصحراء**

* * *

كان الشيهم قد أرهقه البحث المضني فأخذ يتلوى
ويطلق نشيجا مكتوما كعجوز محوم قد أزفت ساعته،
وكانت بومة رمادية تحملق فيه بعينيها الواسعتين
بشيء من الشفقة المفتعلة، ثم انطلقت بحركة خاطفة
لا تلوي على شيء ناعقة: "لم تترك سباع البرية
للشيهم المسكين شيئا يتقوت به"
همهم الشيهم: "ما أحوجنا إلى شمس تفضح ظلام
العجز فينا".

* * *

في الحديقة كان الستيني قد بدأ يستعيد صفاءه،
وكان ينظر بحميمية إلى قمم الأشجار وهي تطفوا في
بحر من حمرة الأصيل فنظر إلى الرجل بشبه إيماءة
وكانه يقول: "انظر إلى الكائنات تسبح في ضياء
اللاهوت" فرد الرجل بنظرة حانقة: "الشمس حريق
عظيم وسوف يأتي على جميع الكائنات".

* * *

كان الستيني الذي ربما سيشاهد في إحدى الليالي
التي يرى فيها النجم المذنب وهو يمخر عباب أثير
"الغي" بين نجم القطب و صلبان الجنوب منذرا بعصر
جليدي جديد - قد ينقذ الأرض من احتراقها - جثة
طافية في كفن بلا جيوب بجوار أخرى لابن حفيظة
الأستاذ الذي أفسدت مياه الغمر "الجل" وبعثرت شعره
كيفما اتفق فبدا بوجه ملائكي عشية الانهيار
الدراماتيكي المثير لسد السرسوقة، كان صديقنا
الستيني هذا مطمئنا في ظل راتبه التقاعدي ومدخراته
المتنامية في المصارف و كان يحاول في نوبات توباته
المتكررة أن يخلق لنفسه دورا تبشيريا بعد أن استغنت
الدوائر الرسمية عن خبراته فبدا وكأنه يحاول التكفير
بالمجان عن خطيئة ما ويجعل لحياه القادمة معنى
جديدا، فيما صديقنا الآخر الذي ربما سيشاهد - في
الليلة التي سيختبئ فيها زحل بجبروته وعظمته خلف
القمر الخجول المسالم الذي يدغدغ بلطف محيطات
الأرض المحرورة بالمد والجزر، حيث يمكن بمقرب

بدائي رؤية هالته العبقرية تتلأأ في العسجد القمري -
وهو خارج من إحدى غرف الكهرباء المجللة بالرخام
الأبيض الموشى برسوم مبشرة لجمجمة وعظام بشرية
بلون أحمر كتب تحتها "خطر الموت" - والتي تفتح
جميعها بمفتاح واحد، والتي أصبحت مأوى للمتشردين
- بلحتيه الطليقة ورائحة العفونة و"البراندي" الرخيصة
المنبعثة من فيه - بعد أن هجر أسرته لأهل البر
والإحسان أو ربما لتجار الرقيق الأبيض - والنار
تشتعل في أسماله البالية وهو يقفز باحثا بهستريا عن
أحد المستنقعات التي خلفتها مياه الأمطار فوق
المصارف المسدودة ليلقي بنفسه فيها، صديقنا هذا
الذي وصل إلى الدرك الأسفل في مسلسل تفهقره
"كهايتي" بئس في رحلة اللاعودة لحصاد قصب السكر
المر في جمهورية "الدومينيكان"، كان يشاهد في الآونة
الأخيرة بأسماله البالية ودثاره العفن المكور عشوائيا
تحت إبطه الأيسر، تتدلى من يده اليمنى ساعة صينية
قديمة يرفعها في وجه أصحاب المحلات التجارية أو
المارة محاولا بيعها مدعيا بأنها من الذهب الخالص
وأنها سويسرية الصنع وعندما يفشل في إقناع أحدهم
كان يحاول أن يستدين منه مبلغا بسيطا يكفي لشراء
بطحة براندي وسندويشة فلافل أو حتى يتسوله ولا
يعبأ بنهره وتوبيخه أو محاولة إسداء نصيحة سمجة
له - بالرغم من أنفته التي منعه من جمع النقطة من
بين السيقات العارية في مقصف ابن الباشا في سالف
الأيام - بل ربما يثور ويتوعد ويلوح بقبضته في
الهواء و هو يقول: "بسيطة" وينصرف باحثا عن مغفل
آخر يحاول إقناعه بشراء ساعته الثينة تلك.

* * *

رفع الستيني الذي يحاول أن يكون مسيحا سبابته
اليمنى إلى أعلى يافوخه وراح يحك نقرته برفق لنلا
يفسد تصفيف شعره وغرق في تأمل مجتمع طوباوي
تسوده العدالة وقلوب عامرة بالحب والإيمان، لكن
صورة ستيني آخر سرعان ما طفت في ذاكرته في
خضم صور حلقات الذكر وأناشيد الموالية ورقصات
المولوية وراحت تجاهد لتحتل مساحة الصورة كاملة،
ستيني مربوع القامة ناحل الجسد بشعر أبيض يقف
مذعورا أمام طاولة مكتبه محاولا إقناعه بشيء ما.

كان الستيني الناحل ذو الشعر الأبيض يملك ثلاثة
مخازن في حي "القمقم" كتب على الباب الخارجي
لأحدها بخط رديء معفر بالتراب "مخازن للإيجار"

وبالرغم من أن هذه المخازن لم تؤجر ولم تفتح يوماً لأن أولاده الذكور قد هاجروا إلى الخليج للعمل أو ربما هربا من تأدية الخدمة الإلزامية فإن صاحبها قد فوجيء بتكليفه بضريبة دخل متراكمة لعشرات السنين ووصله إخطار بمراجعة الجهة المختصة، وهاهو الآن يرتجف بين يدي الستيني ذي الشعر الفضي محاولاً إقناعه ببطلان هذا التكليف ويتناهى إلى سمعه تعليقات باقي الموظفين في المكتب، يقول أحدهم: "هذا المسكين قد وقع ضحية لمافيا الجبابة" فيجيب الآخر بتبجح: "صحيح أنه ليس لدينا كاميرات ضخمة أو كادرات أو إمكانيات كتلك التي في هوليوود إلى أننا قادرون على أن نري أيا كان فيلم رعب من الطراز الجوانزي بمجرد جرة قلم".

وها هو الستيني ذو الشعر الأبيض يُخرج من جيبه رزمة أوراق نقدية ربما تبلغ عشرون ألف مصرية كي يسوى الأمر وتختفي ورقة التكليف من السجلات إلى الأبد.

صورة قد تبدو مؤلمة بعض الشيء إلا أنه قد ألف الكثير منها أو ربما أقطع منها وبقيت تطارده كلغيات إلى نهاية حياته فحاول أن يبعدها من بؤرة ذاكرته ويستعيد صورة حلقات الذكر وتواتر أصوات الموالية ووهديات المولوية ولما لم يفلح في ذلك خشي أن تفضح عيناه فنظر إلى رجل الحاوية مصطنعاً ابتسامة صوفية ساذجة مفادها: "الحب حل لكل مشاكل العالم" فتهد رجل الحاوية: "الجوع كافر"، فرمقه الستيني الذي يحاول أن يكون مسيحياً بنظرة ازدراء وتقزز وكأنه يقول: "مارق زنديق".

* * *

ومن أعلى النخلة القزمية كان يُسمع تغريد حزين لأنثى بلبل تكلّى في تناقض صارخ مع ضحكات الملائكة الصغار الذين كانوا يمرحون فوق أرصفة الحديقة ومسطحاتها الخضراء المعصفرة.

كانت أنثى البلبل التي اتخذت في أعلى النخلة عشاً قد أيست أن يفتس بيضها بعد أن حزم الربيع غيومه البيضاء ونسماته العليّة ورائحة زهر الآكاسيا وهم بالرحيل، فكانت كمن يعزف لحن الوداع في "سيمفونية" ناقصة، هجرت بعدها عشها وراحت تحقّق بجناحيها مغربة في حمرة الأصيل.

* * *

في الغابة كان ثمة شائعات تسري عن وحش أسطوري ربما غادر "الإينوما إيلش" * لتوه، كان ثمة من يقول بأنه بجسد تمساح ومخالب نسر ورأس فيل عملاق، ومنهم من كان يقول بأنه بجسد عقرب ضخّم أو بيسون ورأس حمار غبي بل ربما كان برأسين، ومنهم من زعم بأنه عفريت هائل من الجن على هيئة رجل أبيض أبله أو زنجي مخنث ومنهم من أكد بأن الأم تعامة قد جاءت به لتأثر من آلهة النظام وتعيد العالم إلى عمائه البدني..

كان الصمت والظلام يخيمان على الغابة العجوز بعد أن غرق البدر في بحر الظلام، وكان الحذر المشوب بالهلع، والترقب الأبله هما سيدا الموقف في حرمة الصمت.

تأويلات وتحليلات سخيفة.. تهويمات وتهديدات ساذجة.. ثرثرة ولغظ صامت بلا نهاية.. نقيب غراب أسود يندس حرمة الصمت: "الغابة تحترق!!!"

فاندفعت الضواري المتربصة تتدافع بهلع وهستريا مبتعدة على غير هدى في الظلام، فيما الشيهم المسكين وهذه الحيوانات العاشبة المسالمة قد استسلمت بغريزة الضحية للنيران.

* * *

في الحديقة كان الليل يحبو ببطء مشوباً ببقايا حمرة الأصيل فوق أسفلت المدينة فبدا كمسوح كاهن "كاتوليكي" حليق يرسم بأصابعه الأربعة صليبا بحجم الأفق الغربي.

* * *

وكانت "أندروميذا" الجارة الشهوانية الشبهة العاقر الحاقدة التي تحسد أمنا الطاهرة "درب التبانة" على أبنائها بالرغم من عقوقهم لها، تتربص بأمنا الطاهرة داعية إياها بعهر وإلحاح شديدين إلى علاقة مثلية تبدأ برقصة رومانسية وتنتهي بعلاقة آثمة وحمل ضاؤ من ثقب سوداء ودودية تدفع بمجموعتنا الشمسية إلى عتبات مجهولة في الكون أو تبتلعها في مهرجان دموع تمساحية لتشبع نهم العدم.

* من قصيدة "حلم على حافة الصيف" للشاعر الفلسطيني الراحل "فواز عيد" مجلة المعرفة السورية العدد "٣٥٩" آب ١٩٩٣.

* * أسطورة الخلق "البابلية".



سلي الفوارس عني

شعر: نظير جابر

مَلَّتْ نَوَاقِيسُ أَوْجَاعِي مِنَ الْأَلَمِ
وَاسْتَسَلَمْتُ لَعْرَا حَزَنِي وَنَزَفِ دَمِي
أَصَارِعُ الْغَدَرَ مِنْ أَغْصَانِ دَالِيَتِي
وَالْقَهْرَ يَرْعُدُ فِي رَأْسِي وَفِي قَدَمِي
سَبْعُونَ عَامًا مَشَتْ تَهْتَزُّ تَارِكَةً
وَرَاءَهَا رَاسِيَّاتِ الْغُبْنِ وَالظُّلَمِ
أَطِيرُ فِي عَاصِفَاتِ الرِّيحِ يَسْبِقُنِي
إِلَى جَنَاحِ الثُّرَيَّا وَالثَّرَى عَلَمِي
كَمْ أَصْطَلِي مِنْ شُرُورِ النَّاسِ فِي بَدَنِي
وَالْخَيْرُ وَالْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ مِنْ شِيَمِي
مَوَاكِبُ الشَّعْرِ أَوْلَتْنِي بِيَارِقَهَا
وَحَوَّمَتْ تَنْشِدَ الْأَتْرَاحِ فِي خِيَمِي
مَالِي أَرَى النَّكَبَاتِ الْحَمَرَ تَحْمِلُنِي
لَخُنْدَقٍ مِنْ لُظَى دَوَّامَةِ الْحِمَمِ
صَحْبِي حِفَاةُ عَرَاةٍ ضَمَّ شَمْلَهُمْ
سَنَابِلُ الْحَبِّ وَالْإِيمَانِ وَالْقَلَمِ
تَعَثَّرْتُ فِي شَعَابِ الْبَيْدِ قَافِلَتِي
فَحَمَحَمْتُ فَرَسِي فِي زَحْمَةِ الْهَمَمِ
رُفِّي بِيَارِقَ آمَالِي عَلَى فَنَنِ
يَلْهُو وَيَمْرَحُ فِي فَيْضٍ مِنَ السُّنَمِ



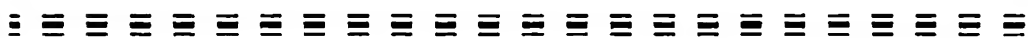


وحدي أَلْمَمُ أَشْتَاتِي وَأَنْشُرَهَا
وَأَمْضِغُ الْبَسْمَةَ الصَّفْرَاءَ مَلَاءَ فَمِي
أَدُورُ فِي فَجَوَاتِ الثِّيِّهِ أَغْمَرَهَا
بَوَابِلٍ مِنْ غَيُومِ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ
حَامَتُ عَلَى رَاعِشَاتِ اللَّيْلِ أَخِيلَتِي
فَغَرَّدَ الشَّعْرُ فِي صَحْوِي وَفِي حُلْمِي
كَمْ نَجْمَةٍ فِي فُضَاءِ الظَّهِيرِ أَرْقَبَهَا
تَحُومُ كَالطِّيفِ فِي جَوِّي وَفِي دَيْمِي
أَكَلَمَّا ارْتَعَشْتُ فِي الْقَلْبِ وَسُوسَنَةً
أَقُولُ: لَا أَشْتَهِي فِي الْأَشْهْرِ الْحُرْمُ؟
وَكَلَمَّا زَارَتْ فِي النَّفْسِ عَاصِفَةٌ
أَقُولُ: ثُورِي فَهَذَا مِنْ جَوِّي كَلِمِي
وَكَلَمَّا وَشُوشَتْ فِي الْكَهْفِ نَازِلَةٌ
أَقُولُ: "تَشْرَبُ مِنْ ضَعْفِي وَمِنْ هَرَمِي؟"
وَكَلَمَّا قَمْتُ مِنْهَا شَامَخًا أَنْفًا
تَشَدَّنِي عَادِيَاتُ الْجُوعِ مِنْ لَمَمِي
أَسْتَغْفِرُ الْعِزْمَ إِنْ لَاحَتْ بِيَارِقُهُ
وَرَفَرْتُ تَسْتَقِي مِنْ مَنْهَلِ الْقِيمِ
اللَّهُ أَكْبَرُ. هَلْ لِي أَنْ أُسَبِّحَهُ
مَهْمَا تَعَثَّرْتُ فِي الْأَشْلَاءِ وَالرَّمَمِ؟
رَهَيْفَةً تِلْكَ أَطْوَارِي وَيَعْرِفَنِي
أَهْلُ الْحَمِيَّةِ مِنْ شِعْرِي وَمِنْ سَأَمِي
قَطَعْتُ مِنْ غَاشِيَاتِ اللَّيْلِ أَوْرَدَتِي
وَرَحْتُ أَسْبَحُ فِي بَحْرِي وَفِي نَعْمِي





أطوف بين رهاناتي وأشعلها
كأنني عن غيوب النازعات عم
مالي أصدق في بحري بلا سفن
وقد قطعت على أمواجه رجمي؟
لا. لست أشكو إلى فرعون عاقبتني
جرّد حسامك يا فرعون! واضطرم
أقول للتاج من فرعون: يا ملكا!
جمع جيوشك في الغارات وانتقم
بيني وبين رباحيني وقافيتي
عشق يوزع أطياباً على الأمم
إن كان نوري سراباً خادعاً ولها
فالله مؤئل أنعمامي ومعتصمي
هلي لي بأن أسرق الآهات من قمري
وأن أرش عطور الجود والكرم؟
وجدي وخمرة أفراحي ومنقلي
غاصوا مع الزمن المسحوق في القدم
صبري وتلة أوهامي وساريتي
تصارعوا فهوت في قاعها جرّمي
مهما تباعدت عن ركني وساقيتي
أبق الأليف لهم في السلم والسلم
وإن عصت في رحاب السّاح حاميتي
وطوّقتني فإني غير منهمزم
مازلت أحياء على وقع السيوف ولا
زالت ركابي تشقّ الدرب للهم



إنطاق

التاريخ

الأندلسي

أجميل

بقلم:

فاضل السباعي

صدر عن دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، بدمشق مؤخرًا، كتاب بعنوان (الأندلس في عصر بني عبّاد، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة والاقتصاد)، من تأليف الباحث المغربي الدكتور أحمد الطاهري، الذي يرأس (مؤسسة الأدرسي المغربية - الإسبانية للبحث التاريخي) ومقرها مدينة إشبيلية بإسبانيا.

وقد أقيم في المغرب، في (بلاد الريف) شمالًا التي ينتمي إليها المؤلف، حفل شارك فيه العديد من الباحثين العرب والإسبان والفرنسيين، ومنهم ناشر الكتاب بدمشق الأديب الروائي فاضل السباعي، المعني بالشؤون الأندلسية، الذي كتب مقدمة الكتاب، ونظرًا لأهميتها وما تنطوي عليه من معلومات قيمة تتعلق باقتصاد الأندلس والبناء التحتية في أيام العز الحضاري، فإننا ننشرها..

١ - لمحة تاريخية:

لا يغيب عن مفكر أو باحث أن الإسلام ما دخل مصرًا من الأمصار إلا ثبت فيه، لم يشذ عن ذلك إلا الأندلس، التي اعتنق أهلها الدين الجديد ونطقوا بلغة القرآن الكريم، ثم كان أن سقطت غرناطة، آخر معاقل الأندلس، في أيدي المحاربين الإسبان، الذين لم يكفوا عما أسّموه "حرب الاسترداد"، وانتهى الأندلسيون - الذين كانت تسري في عروقهم دماء إسبانية بمقدار ما يسري في الدماء العربية - إلى أن خرجوا بدينهم ولغتهم إلى المغرب، الذي كان قد أدى قسطا كبيرا من المدافعة والمساعدة، وإلى أنحاء من ديار الإسلام؛ وأما من بقي منهم في إسبانيا، بعد التهذيب والتغريب، فقد تعرضوا للتشديد والتشريد، قبل أن يرغموا على التنصر؛ فذاب بذلك الأندلسيون في خضم المجتمع الإسباني، الآخذ آنذاك في التكوّن والتشكل^(١).

ونحب أن نشير إلى أن الإسلام، في كريم خصاله، كان متسامحاً، فلم يعمل عند الفتح ولا بعده، على "أسلمة" السكان، هؤلاء الذين فضلوا العيش أحياناً في ظل الدولة الأندلسية المتحضرة على أن يعيشوا في بعض الممالك المسيحية في ذلك الجانب من شبه الجزيرة الإيبيرية؛ وأما كردينال طليطلة، خيمينيس دي سيسنيروس المتمتع باحترام الملكين الكاثوليكين فرناند وإيزابلا، فقد حدثتنا المصادر التاريخية عن بالغ نشاطه في التنصير والتهجير، وعن اقترافه تلك "المحرقة" الثقافية الهائلة في ساحات غرناطة، حيث التهمت النيران ما يزيد على مئة ألف مخطوطة عربية في أدنى تقديرات المصادر اللاتينية ذاتها^(٢).

أمازيغية) أحمد الطاهري، عبر كتاب نثري، قد ألفه، وهو في مقامه بإسبانيا، وعلى وجه التحديد في جنوبها: إشبيلية.. وأي كتاب! لقد استحضر الطاهري، في كتابه هذا، الماضي، وأنطق التاريخ، ورسم الأشكال والألوان والظلال بريشة بارعة جامعة، حتى لقد تجلت لنا الحياة الأندلسية في أيامها، وفي يومياتها التفصيلية، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.. استحضر لنا عالماً يأبى أن يختفي من ذاكرة العرب، على حين يحتفي به إسبان اليوم أيما احتفاء، فهم مسحون التراب عن الآثار، ويرممون الصروح، ويرفعون الصوت في الإعلام اعتزازاً حضارياً وإغراءً سياحياً.

٢- أحمد شوقي وأحمد الطاهري:

خرج العرب من الأندلس، ولكن الأندلس لم تخرج من فكر العرب ومن وجدانهم الجمعي؛ ذلك أن ما سطره الأندلسيون، وكذلك إخوانهم المشاركة، ظل ثاوياً في طيات الكتب، فلما قدر لشاعر عربي معاصر أن يقيم في الأندلس الغاربة شمسها، وأن يهيم حباً بها وشغفاً، أخذ ينشد:

يا نائح الطَّلح أشبابة عوادينا
نشجى لواديك؟ أم نأسى لواديها؟

وخريدة أخرى مطلعها:

اختلاف النهار والليل ينسي
صورت من تصورات ومس^(٣)

أعاد الشاعر المصري (من أصول كردية) أحمد شوقي، الأندلس إلى الذاكرة العربية، عبر شعر أرسله، وهو في منفاه بإسبانيا، وعلى وجه التحديد في شمالها، برشلونة؛ واليوم يعيدها إلى الأذهان الباحث المغربي (من أصول

٣- حكايتي مع هذا الكتاب:
في صيف ٢٠٠٦ قدمت إلي الباحثة في التراث المعماري الإسلامي، الدكتورة نجوى عثمان، لدى عودتها من إشبيلية، كتاباً حمل عنوان "دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس، عصر الخلافة والطوائف" هدية من الباحث المغربي الدكتور أحمد الطاهري^(٤).. فشدني الكتاب بما فيه من أسباب التقصي والتتبع في القضايا التي يطرحها، وخاصة تعاطفه الجلي مع طبقة العامة في المجتمع الأندلسي الذي كان.

ثم إنني تلقيت بعد حين من المؤلف الفاضل، عبر "الفاكس" (الفاكس)، رسالة يُحدثني فيها عن أنه فرغ لتوّه من تحرير المتن الكامل لآخر مؤلفاته في تاريخ الأندلس، ويتعلق الأمر بدراسة مطوّلة تناولت "التجارات والصنائع والمعاملات بالأندلس خلال عصر بني عبّاد، من نظام التثمين التعاقدية إلى نمط الحجر السلطاني"، ما أسفر - يقول - عن جملة من النتائج الجديدة، ليس فقط في حقل الدراسات الأندلسية بل أيضاً ما يتعلق بأصول نظم

وحضارة دار الإسلام أيام عزّ العطاء الحضاري، إذ تناول تاريخ التجارة والتجارة وعامة الباعة وأهل السوق والصناعة والصناع وأهل الحرف والمعاملات وأرباب الأموال، وما يرتبط بذلك كله من وسائل وتقنيات ونظم.

وأعترف بأنّ هذا العرض لموضوع الكتاب قد أثار عندي عاطفة الحبّ التي أكنّها نحو الأندلس، مضافاً إليها حبّ آخر للشعبيين من أهل الأسواق^(٥).. فرجوت أن أجد في الكتاب الموعود صورة مستعادة للعامة الذين كانوا يتحركون هنالك في فردوسنا الذي فقدنا! ولقد سبق أن عرفنا كثيراً من أخبار الملوك والسلاطين والشعراء والفقهاء والحكماء، وأما "أصحاب الأسواق"، والعمال (ويسمّهم الطاهري أحياناً "العمالين")، أولئك البناة التحتيون للمجتمع، وبتعبير آخر: المسّهمون في تشييد أسس الحضارة، المجهولون، فقليل ما نقف على أخبارهم في المصادر. فبادرت أكتب إلى الطاهري مرحباً^(٦)..

٤ - مطارحات.. في الشؤون الأندلسية:

ثمّ إنني التقيت الطاهري بدمشق^(٧)، فوجدته ممتلئاً معرفة بالشؤون الأندلسية، مسكوناً حباً بمذُن الأندلس وأحيائها، وقراها وجبالها ووهادها، ومائها وشجرها وترابها وسماؤها.. بالاختصار رأيته مزداناً بمعرفة ما مرّ بالأندلس، من حوادث الزمان وأحداث الدهر.

وكنّا، ونحن في بيتي الدمشقيّ في سفح "جبل قاسيون"، نتطّرح الحديث حول الأندلس. ووجدتني حريصاً على أن أبدي إعجابي البالغ بـ"معارفه الأندلسية"، فكان من لطف شمائله أن بادلني الإعجاب، مع أنني عنيت بالأندلس عن بُعد، عبر الدراسة والمتابعة ولم يتح لي أن أطأ ثراها، على حين أنه يقيم فيها، يقطن في إشبيلية "الحمصية"، ويبحيث ميدانياً، ويعاني. أجل.. في ذلك الربيع، كنّا نتحدث، ونأسي على ما فات الأجداد، أو ما فوتوه هم

على أمّتهم من حظوظ، في أزمان التراجع والنكوص، هذه التي تعيش أمّتنا مثيلاً لها في عصرنا الراهن.

والذي كان، بعد تلك الأيام الربيعية، أن الطاهري، سافر إلى حلب الشهباء، أنجز هناك مهمّته، وعاد مسرعاً إلى دمشق الفيحاء، وهو أكثر شوقاً إلى وصل ما انقطع من تلك المطارحات^(٨).

٥ - حصّيات ملوّنة في كيزان ماء:

وتلقّيت نصّ الكتاب، الذي استغرق العمل فيه أحد عشر عاماً، اختزلتها بقراءته في أحد عشر يوماً.. وشاء لي خيالي أن أتصور المؤلف وقد اقتعد شاطناً، يفتح ما بين يديه من أصداء، مستخرجاً اللآلئ، مُسلِكاً إياها في عقد طويل طويل..

فهو يُحدّثنا، مثلاً، عن "حصّى المريّة"، فإنه كالذرّ في رونقه، وله ألوانٌ عجيبّة، ومن عادتهم أن يضعوه في كيزان الماء!.. فحملني هذا القول منه على أن أتصور أسرة أندلسية، وفي ركن من بيّتها إشبيلية التي كانت، كوز ماء عذب، يشف بلورّه عن تلك الحصّيات الدرّية بتلاوينها البديعة.

٦ - في "سوق الخياطين":

ثمّ إن الطاهري يدع هذه الحصّى، الراسبة في قاع الكوز عند تلك الأسرة الأندلسية الرافلة بأسباب النعيم، وينزل بنا إلى الأسواق، حيث يقوم العمال بخياطة ثوب أندلسي. إنه، بعد الأخذ بعين الاعتبار أن "الشقة" (قطعة القماش) يقصّر ذرعها عقب بلها في الماء، يتسلّمها من يُسمّون "القطّاتين"، الذين يقومون بتقطّين الثوب وتبطينه بأن يجعلوا القطن في مواضع منه؛ ثم يتناولوه غيرهم ويعمدون إلى "تينيّقه"، بأن يدخلوا البنائق (ما يزداد في الثوب ليتسع) إلى بعض جوانبه؛ وهناك "الحشّاؤون"، يقيمون

المحاشي ويؤسعون أطواق الثوب؛ وإن من الأثواب ما يخضع لعناية إضافية عند "الفرّائين"، الذين يعانون فراء الأدم والجلود؛ و"الشكامون"، الذين يضعون القنائر والشرائط من الجلود والشعر؛ ولا ينسى المؤلف مرحلة إثبات الأزرار.. لقد رأيت الطاهري، في استخلاصه هذه المعلومات، "يعاني" الرجوع إلى سبعة من المصادر العربية القديمة!

ثم يشير إلى ما دأب عليه حذاق النساجين الأندلسيين من الوشي على الحرير. وقد شهد عصر العباديين "اتساعاً منقطع النظير في أساليب التبنيق والتحسين والتزيين، يُمارسه مهرة الفعلة على أصناف الثياب الراقية.. كما يعمدون إلى تزيين الأثواب بخيوط الذهب.. منها ما يكون مطعماً بـ"الذهب المغزول"، ومنها "المرقوم بالذهب"، ومنها "المُخبرطم بالذهب"، ناهيك عن الأثواب المنمقة بالعقيان (الذهب الخالص) والمكحلة بأصناف النفائس والأحجار الكريمة.. ومنها المثقلة ذات الصور المقيّدة للأحاط".

٧- ... وينطق التاريخ!

ويخرج الطاهري من الأسواق لينطلق بنا إلى عالم أرحب، ذلك الذي عمّره الأندلسيون بالفنادق والمطاعم والحمامات والحوانيت والأسواق، مما يحتاج إليه التجار والمسافرون من خدمات على طول مسالك السفر، وقد بلغت من الكثرة في ربوع الأندلس، حتى شاع الخبر في الآفاق بأن المسافرين "حيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والأودية ورؤوس الجبال، لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوث [السّمك] وغير ذلك".

ويشير على تحسن معاش الفلاحين ورقي مظاهر حياتهم العامة، يتجلى ذلك في الخصائص المعمارية لمساكنهم، التي غدت، خلال عصري الخلافة والطوائف، "تهايةً في الجمال، لتصنع أهلها في أوضاعها، وتبويضها لنلا تنبو العين عنها".

ويبلغ إنطاق التاريخ حدّ الشدو والتغريد، حين يُحدّثنا عن "وادي إشبيلية" (نهرها): عن الرصيف المحتضن للمراسي والمقصود بالتجارات وأصناف المراكب المحملة بالسِّلَع والخيرات، وقد حصّنت مداخله بالأبراج والمنارات، حتى قيل: "ليس في معمر الأرض أتمّ حسناً منه".. وعن كثافة الملاحة النهرية على طول مجرى هذا النهر، يقول: وكانت القوارب تسير فيه - عدا النقل والتنقل - "للنزهة والسير والصيد"!

أليس من حق الإسبان، اليوم، الأكثر وعياً للحقبة التي مرت بها بلادهم، أن يحزنوا لأن الأندلسيين، أرقى شعوب أوروبا في القرون الوسطى، قد تعرّضوا للتهجير إلى الخارج وللتدمير في الداخل، مما جعل عجلة التقدم في إسبانيا الأندلسية تتوقف، على حين استفاد الأوروبيون من كل المنجزات الحضارية التي قدّمها الأندلسيون؟!

٨- استحضار التاريخ، بلحمه و.. عصبه!

وفي التنقيب والتنقيب في صفحات التاريخ، نرى الطاهري يستخرج لنا الحكايات والطرائف والغرائب، فيها ما يُثير العبرة، وفيها ما يُسيل العبرة، وأيضاً ما يبعث على العجب والاستعجاب.. وذلك عبر حديثه عن الأدب، والسياسة، والصناعة والتزيّن، و.. عن كبير السراق لحظة كان يُنفذ فيه حكم الموت!

في التدليل على ارتفاع مكانة الحرفة في المجتمع الأندلسي، عثر المؤلف في ثنايا التاريخ على حكاية تتصل بحاكم إشبيلية المعتمد بن عباد، الذي كان قد عدّ عميداً لملاوك الأندلس زمن الفرقة. وهي أن أحد أولاده، المسمّى "فخر الدولة"، أصابته، لا نقول: حرفة الأدب، بل "حرفة الصياغة"، أجل أن يعمل الولد صائغاً! فما كان من الأب إلا أن أقدم، غير متحرّج، على توكيل من يُعلم ابنه أسرار هذه

الحرفة ويُدربُه على إتقانها، "فأمر بإحضار الصنّاعة إلى القصر، وعلم فخر الدولة الصياغة، وحذق فيها".

٩- الزيت.. والراس المُدبّر!

ولعلّ ممّا يُسبّل العبّرة حالة الشاعر ابن الزقاق الأندلسي، الذي كان "يسهر في الليل، ويشغل في الأدب، وكان أبوه فقيراً جداً، فلامه وقال له: نحن فقراء، ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه!"^(٩).

ولمّا وقع الهيج في قرطبة، بأن "قامت العامة على السلطان ولّبوا السلاح، كان شيخ [حداد] جالساً على كيره يعالج صنّعه، فقال: ما بال الناس؟ قالوا: قامت العامة على السلطان! قال: لهم رأس؟ قالوا: لا! قال [مخاطباً أجيره]: شق الكير، يا صبي!، فذهبت مثلاً!"^(١٠).

١٠- تنبيه شديد، ونصح شديد:

وبلغ التزيّن باتخاذ لباس الحرير أن نبّه أحد الفقهاء واحداً من أصحابه الأثرياء، كان يتردّد عليه وهو بثياب الخزّ، قال: "إن كنت تحب أن تختلف إليّ بثياب الكتان، وإلا فلا تأتي!". ويبقى هناك النصّح الذي وجهه أحد العوام من أولي البصائر إلى المعتمد بن عباد وجهاً لوجه، وقد تزايدت مخاطر ركوب البحر بسبب تصاعد تهديدات أساطيل دار الحرب المعادية للملاحه الأندلسية، فكان ممّا قال له: "عليك أن تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر.." ^(١١).

١١- "البازي الأشهب"، يسرق وهو يُصلب! ومن الطرائف التي لم يُغفلها الطاهري؛ حديثه عن أنه كان، في زمان المعتمد، السارق المشهور بـ"البازي الأشهب"، وكان له في السرقة كل غريبة، وكان متسلطاً على أهل البادية، وبلغ من سرقة أنه سرق وهو مصلوب!"^(١٢).

١٢- عين تحتضن الكتاب:

في بحث كنت قدّمته، في عام مضى، في إحدى الندوات العلمية، عن العالم الأندلسي الإشبيلي "أبي العباس النباتي"، وقفت في بعض المصادر التاريخية على وصف له راق لي: أنه كان - عدا دأبه على البحث عن الأعشاب في أنحاء الأندلس وخارجها (حتى وصل به السفر إلى أقطار المشرق، خراسان، مدينة "مرو") - "جماعة كتب!"

وإني أرى اليوم، أحمد الطاهري "بلديّه" القاطن إشبيلية، يُضاهيه في خصاله: في الدأب على البحث والتقصّي مع جمع الكتب أيضاً، ولعله يزيد عليه في أنه يلمّ، بنظرات منه سريعة، بما في المكان الذي يكون فيه من كتب مرصوفة فوق أرفف الخزائن! لقد حمل لدى عودته إلى إشبيلية من دمشق الكتب والموسوعات الطوال، التي لم ألبث أن رأيت، في الطبعة التالية من كتابه الواصلة إليّ عبر البريد الإلكتروني، شواهد منها، مثل: "كتاب الأموال" لابن زنجويه (إصدار الرياض)، و"الفلاحة النبطية" لابن وحشية (دمشق)، و"تكملة المعاجم العربية" للمستشرق دوزي (بغداد)، و"كتاب العين" للفرديدي (طهران)^(١٣).

١٣- "المستريحون في ظلال التقليد":

وللطاهري، في حيازته للكتب ودراساتها، رأي فيما يتبعه الباحثون العرب في دراستهم للتاريخ الإسلامي. فهو، مع أخذه بما أنجزه غيره من الباحثين المعاصرين والسابقين، لا يتوقف عند ذلك، بل يتجاوزه إلى ما هو أبعد. ولا يتردّد، في مجال البحث في التراث العلمي خاصة، في انتقاد أولئك "المستريحين في ظلال التقليد، الذين لم يسأموا، على مدار قرن مضى، من ترديد المقولة الاستشراقية الشائعة بشخّ المادة المتعلقة بالتاريخ الاقتصادي، بينما تظل مئات المصنفات والرسائل والتقايد،

١٥ - لو أن أجدادهم لم يطردوا أجدادنا:

وبعد...

حضارة أقامها الأجداد، في تلك الديار، حتى إنهم قاربوا بها الحضارة في عواصم الإمبراطورية العربية في مشرق الأرض، دمشق وبغداد والقاهرة. ولعل الطاهري، المقيم في إشبيلية، لم يجد كبير عناء في الوقوف على مفردات هذه الحضارة الجميلة وفي لملمة لقاءها الغالية، فأدرجها في هذا السفر النفيس، فذكر، وهو في تذكيره قد "أدمع" العيون عبرات فرح وحزن، وذكر تذكيراً يفيد كثيراً في الحفاظ على "فردوس" آخر نوشك أن نفقده.

وفيما يسمي اليوم "حوار الحضارات"، يحق لنا أن نتساءل: لماذا تريد حضارة أن تغتال حضارة سبقت؟ نفهم أن تقاوم أمة غزاة مدمرين، ولكن.. أن تعمد أمة إلى أن تلقي، أن تجتث، تستأصل، حضارة أمة أخرى قد توطنت ربحاً من زمن؟!!

ذات يوم من ربيع العام ١٩٨٩، وأنا في مدينة "طرطوس" السورية، أشارك في المؤتمر السنوي الثاني عشر لتاريخ العلوم عند العرب، قلت للمستعربين الإسبانيين الشابين: أنداليثيو لوثانو كامارا وزوجته ماريّة أنجليس نافارو، من المشاركين في هذا المؤتمر، ونحن في "عبارة" تطوف بنا حول "جزيرة أرواد" الصغيرة.. قلت بحزن قد اختزنته مئات من السنين:

"طيب، ما ضرَّ لو أن الملكين الكاثوليكين، فرديناد وإيزابيلا، المنتصرين على غرناطة، تركا المسلمين أقلية تعيش بينهم في أمان، تسهم - بثقافتها وعراقتها - في بناء الدولة الجديدة، إسبانيا؟ وذلك ما فعله الفاتحون العرب يوم دخلوا البلاد، فلم يرغبوا أهلها على تغيير دينهم، وتركوا لهم لغتهم، وأسقفهم الذي يعقد زيجاتهم، وقاضيهم الذي يفض منازعاتهم؟..".
ثم أكن أتوقع أن أجد عندهما لتساولي جواباً!

الموضوعة في مختلف حقول المعرفة، في انتظار من ينتبه إلى مضامينها العلمية".

وإنا لنراه، في كتابه هذا، يوفق في أن يستخرج مادته العلمية، التي أقام عليها كتابه، بانياً بها عالماً من "الثقافة الاقتصادية" متعددة الوجوه والمستويات، فكان ممّا نبّه عليه في ذلك، أن الأندلس استطاعت أن تتحكم في "المبادلات التجارية" بين داري الحرب والسلام، فمراكب النصارى واليهود ظلت تتردد على المدن الأندلسية، هذه التي استفادت من فتاوى الفقهاء في قواعد الصلح والألفة!

وهو ينصح الباحثين بأن يتجاوزوا، عند تنظيرهم لنشوء "الرأسمالية التجارية"، أن انطلاقها كانت من المدن الإيطالية، كما هو رائج عند المهتمين بالتاريخ الاقتصادي، وأن يتنبهوا إلى أهمية الحلقة الأندلسية - المغربية، التي كانت وراء التلاحق، خلال هذا التاريخ المبكر، "بين نظام التثمين التعاقدى وهو في أعلى مستويات تطوره، وبين الرأسمالية التجارية الإيطالية وهي تخطو أولى خطواتها".

١٤ - عناوين، ومداخلات:

وكما يرى القارئ، فإن الكتاب يتألف من مقدمة، يليها بابان إثنان مجموع فصولهما خمسة عشر، قد احتشد في كل فصل منها من المعرفة ما جعله أشبه بكتلة من المعلومات، متراسة متماسكة، لا تنفتح إلا دفعة لمن يقرأ الفصل من أول كلمة فيه حتى آخر الكلمات؛ فتمنيت، مع هذه الحالة، لو يتفتح ذلك المكنون في تلك الكتل للقارئ عبر عناوين فرعية، فيسهل التناول.. وكان أن فعلت^(١٤).

وقد كان المؤلف متقناً توزيع مادته على فصول كتابه فصلاً فصلاً، داعماً ذلك بمرجعية فائقة، غصت فيها الحواشي بالمصادر والمراجع، وإن قل ما يعرض فيها - في الحواشي - من رأي يرتئيه^(١٥).

ولشوقي في هذه القصيدة الأخيرة بيتٌ تضمّن معنى من أسمى معاني الشعور بالوطنية، رأيتهم يعتدون به في احتفالية شوقي وحافظ بمكتبة الإسكندرية (ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٧):
وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه

نازعني إليه في الخلد نفسي!
(٤) المقيم في إشبيلية مديراً لـ "مؤسسة الإدريسي المغربية - الإسبانية للبحث التاريخي والأثري والمعماري"؛ طبع الكتاب في العام ١٩٩٣ (د.ن).
(٥) ذلك أني نشأت بحلب في حيّ شعبيّ يُسمّى "وراء الجامع"، يتاخم "سوق المدينة" الذي يعمل فيه والذي، وقد ظللت أتردد عليه منذ نعومة الأظفار، فأرى العامة من الناس كيف يتعاملون ويتصرفون في الأسواق.

(٦) ... ومعبراً عن سروري بأن أجعل من هذا الكتاب الحلقة الثانية في سلسلة "الكتاب الأندلسي"، التي كنت بدأتها بكتاب نقلته الدار إلى العربية للمستشرق الإسباني خوان فيرنيت (مُحرّفاً العنوان: "فضل الأندلس على ثقافة الغرب"). ولم يفتني أن أشير، في رسالتي، متمنياً: "وما أشك في أنكم تعمقتم كتاب الذيل والتكلمة في الموصول والصلة" لابن عبد الملك المراكشي، فإن فيه لمعاً مغنية في هذا المضمار"، وأعني الجوانب الاجتماعية وما يتصل بها من الأحوال الاقتصادية!

(٧) حلّ بها، وهو في طريقه إلى حلب محاضراً فيها بصفتها عاصمةً للثقافة الإسلامية، في العام ٢٠٠٦ وفي بضعة الأشهر من العام الذي تلاه.

(٨) ممّا قام به الدكتور أحمد الطاهري من زيارات لمعالم دمشق، "سوق الحميدية" (أنشئ في عهد السلطان عبد الحميد العثماني) و"جامع بني أمية الكبير" (في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك) و"ضريح صلاح الدين الأيوبي" .. وما أحبّ أن أذكره، هنا، أني صحبته يوماً إلى ما سمّيته له سوق محي الدين، هذا الذي يقع على مقربة دانية من بيتي، نصل إليه صاعدين مسافة في سفح جبل قاسيون. والمفاجأة التي كنت أخبئها للطاهري، أني انعطفت به فجأة، فاجتزنا عتبة جامع يقع في منتصف هذا

السوق. وكانت فرحة الطاهري، المقرونة بالدهشة، عظيمة، لحظة تبين أنه الآن في رحاب جامع الصوفي الأندلسي الأشهر "محي الدين بن عربي".

(٩) وتكملة الحكاية كما وردت في "فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" - أن هذا الشاعر، البائس أبوه، قدّر له أن يحسن نظم الشعر، فاتفق أن امتدح أحد الكبراء، "فأطلق له ثلاثمئة دينار، فجاء بها إلى أبيه، وهو جالس في حانوته مكبّ على صناعته، فوضعها في حجره، وقال: خذها فاشتر بها زيتاً!".

(١٠) الهيج: هو التمرد، الثورة في المصطلح المعاصر، والكير: الزق من الجلد يُنفخ به لتأجيج النيران.

(١١) ذكره المقرئ.. وبدايته أن رجلاً "استأذن الدخول على المعتمد، فدخل وهو في هيئة رثة.." وقال ما قال في حديث طويل، انتهى بأن شكره المعتمد ووصله".

(١٢) قوله أهل البادية، يعني: أهل الريف. اكتفى المؤلف بهذه الإشارة! ولكن لأني أتعاطى، ابتداءً، القصص والرواية قبل اشتغالي بالشؤون الأندلسية، فإني أحبّ ألا أفوت على القارئ رواية هذه الحكاية الطريفة كلها، ممّا أورد المقرئ. وها هي ذي بتمامها:

أمر عباد بصلب [البازي الأشهب] على ممر أهل البادية لينظروا إليه. فبينما هو على خشبته على تلك الحال، إذ جاءت إليه زوجته وبناته، وجعلن يبكين حوله ويقلن: لمن تتركنا نضيع بعدك!

"وإذ بدويّ على بغلٍ وتحت ثياب وأسباب، فصاح عليه: يا سيدي، انظر في أي حالة أنا، ولي عندك حاجة فيها فائدة لي ولك!"
قال: وما هي؟

قال: انظر إلى تلك البئر. لما أرهقني الشرط رميت فيه مئة دينار، فعسى تحال في إخراجها، وهذه زوجتي وبناتي يُمكن بـغلك خلال ما تخرجها!

"فعمد البدويّ إلى حبل، ودلى نفسه في البئر، بعدما اتفق معه على أن يأخذ النصف منها، فلما حصل أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبل، وأخذت ما كان على البغل مع بناتها، وفرت به..".

والتكملة، عند المقرّي، أنه "رُفِعَت هذه القصة إلى ابن عباد، فتعجب منها، وأمر بإحضار البازي الأشهب، وقال له: كيف فعلت هذا مع أنك في قبضة الهلكة؟

"فقال له: يا سيدي! لو علمت قدر لذتي في السرقة، خلّيت ملكك واشتغلت بها!

"فلعنه وضحك منه، ثم قال له: إن سرّحتك وأحسنك إليك وأجريت عليك رزقاً يُقيلك، أتتوب من هذه الصنعة الذميمة؟

"فقال: يا مولاي! كيف لا أقبل التوبة وهي تُخلّصني من القتل؟

"فعاهده، وقدمه على رجال أنجاد، وصار من جملة حراس أحواز المدينة".

(١٣) أذكر إشارتي في أثناء الحديث، ونحن في بيتي، إلى أنني أمتلك نسخة من كتاب "المقنع في الفلاحة" لابن حجاج الإشبيلي (منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان ١٩٨٢) وكان الطاهري تواقاً إلى اقتناء نسخة من هذا الكتاب. وقد عبرت له عن أسفي لأنني لا أعرف الآن موضع هذا الكتاب في أرفف مكتبي، فقام يبحث عنه إلى أن رآه متوارياً، وقال ظافراً: هوذا!

كان هذا عشية عودته إلى إسبانيا، وصباح اليوم التالي بعثت بالكتاب إلى من يصوره بالفوتوكوبي. وقبيل السفر قدّمت إليه الصورة على هيئة كتاب ذي غلاف.. فكانت فرحته بالحصول عليه لا يعادلها إلا إعجابي بسرعة استدلاله على موضعه في خزائن الكتب التي تحيط بجدران البيت!

(١٤) لاحظت الباحثة الفاضلة الدكتورة نجوى عثمان، لدى مطالعتها الكتاب قبيل دفعه إلى المطبعة، أن ما صيغت به هذه العناوين الفرعية من ديباجة أدبية، يُغايّر ما يرد تحتها من مضمون صيغ بأسلوب علمي بحت!

(١٥) أعتزف بأنه زَيْن لي، والموضوع مكتنز بالمعلومات، أن أدلي بـ"مداخلات" في الحواشي (وقد فعلت ذلك، كثيراً، في "فضل الأندلس على ثقافة الغرب")، وهممت، بأن حَبَرْتُ مداخلتين اثنتين،

ووددت لو أمضي في ذلك، لولا شواغل في الحياة حالت، ونظراً بدأ.. وأنا رجل قد بلغ الثمانين، فعدلت! (١٦) الشاعرة ماريّة دو لوس ريس فونتيس، ولدت في إشبيلية عام ١٩٢٧. عملت أستاذة في مجال العلوم التجارية والاقتصادية، وشغلت مناصب ثقافية هامة، منها عضوية الأكاديمية الملكية للعلوم والآداب والفنون في كل من قرطبة وسان تيلمو ومالقة. حازت كثيراً من الجوائز في مجال الشعر. ويُعدّ هذا الكتاب من أهم أعمالها.

(١٧) الشاعر فرناندو دا أغريدا بوريو، ولد في مدريد عام ١٩٤٥، وعمل أستاذاً بجامعة لها، ترجم إلى الإسبانية عدداً من الأعمال الأدبية العربية (مغربية وتونسية وعراقية). يشغل حالياً منصب المدير في مركز الأبحاث الأدبية في وكالة التعاون مع العالم العربي AECI.

(١٨) كتبت سلمى الحفار الكزبري (المولودة بدمشق عام ١٩٢٢) القصة والرواية، ونظمت الشعر باللغة الفرنسية، وكان أول أعمالها المنشورة "يوميات هالة" (دمشق ١٩٥٠). عُيّنت باحثة بالكاتبة اللبنانية مي زيادة ولها فيها غير كتاب، أهمها "مي أو مأساة النبوغ" (جزءان، بيروت ١٩٨٦). تنقلت بين عديد من العواصم، وأقامت في لبنان وفي إسبانيا. وافتاها الأجل في بيروت يوم ١١ آب/ أغسطس ٢٠٠٦ (في آخر أيام حرب تموز)، ووريت الثرى هناك. ويكون طبيّاً إذا عرفنا أن اسم العاصمة الإسبانية اليوم، مدريد، مستمد من العربية، وقد كان موقعها في البدء حصناً أمر باتشائه أمير الأندلس "محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني" (القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادي)، وكان الحصن يُعدّ بالماء النقي الطاهر بوساطة جوفية تسمى "المجرى"، فسُمي المكان (بإضافة اللاحقة اللفظية ute إلى الكلمة) بعد أن تحوّل إلى مدينة: "مجرىط" بالعربية، وهي "مدريد" بالإسبانية اليوم.. وإلى مدريد، مجريط، ينسب العالم الأندلسي "المجريطي" (مسلمة بن أحمد، المتوفى ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م).



أَحِبُّكَ الْحُبَّ



شعر: عصام شعبان

أَحِبُّكَ الْحُبَّ لَا تَيْهًا وَلَا خِيَا
يا جَارَةَ النَّجْمِ عَنِّي فَاسْأَلِي الرَّكْبَا
أَحِبُّكَ الْحُبَّ حَدًّا لَسْتُ أُدْرِكُهُ
وَمَا كَفَرْتُ بِهِ دِيْنًا وَلَا رَبًّا
أَحِبُّكَ الْحُبَّ لَا مُسْتَعْظِمًا ذَنْبًا
مِنَ الْخَطَايَا وَلَا مُسْتَوْجِبًا ذَنْبًا
هَذَا نَصِيْبِي بِأَنْ أَهْوَى مُعَذِّبَتِي
إِنِّي رَأَيْتُ عَذَابِي فِي الْهَوَى عَذْبَا
فَصَارَ حُسْنُكَ يَا حَوْرَاءُ يَأْمُرُنِي
حَتَّى أُطِيعَ وَيَنْهَى حَيْثُمَا يَأْبَى
فَالْحُبُّ فِي النَّاسِ دِيْنٌ فَازَ طَائِعُهُ
لَأَنَّ عِصْيَانَهُ قَدْ يُوجِبُ السَّابَا
لَا أَبْعَدَ اللَّهُ عَنِّي طَيْفَ آسِرَتِي
وَلَا رُؤَاهَا إِلَى أَنْ أُوسِدَ التُّرْبَا



بعد الأهوال والمجازر التي ارتكبتها
إسرائيل في فلسطين دعيت جماهير المواطنين
للخروج في مسيرة عفوية تجوب أنحاء
المدينة، حمل الناس الأعلام واللافتات المثقلة
بالشعارات، وأحاطت كاميرات التصوير بالناس،
وشبك بعض المسؤولين أيديهم ببعضها
متزعمين المسيرة وسالبين الأضواء.

بعض الشباب المتحمس رفع على
الأكتاف وبقبضاتهم الغضة أخذوا يصفعون
الهواء هادرين:

"بالروح بالدم نفديك يا شهيد
وإن هلهت هلهنا لك صفينا البارود
قبالك..

بالروح بالدم نفديك يا فلسطين"
وردت الجماهير الغاضبة الهتافات
بقوة كأنها تنزل عن كاهلها ذنباً يقلق راحتها.
الضجيج والحماس اللذان يلهبان
الأجواء لم يستطيعا أن يخرجوا الأنسة خديجة
من حالة تلبستها منذ الصباح، حيث صرخت
في وجه إحدى طالباتها:

- قليلة أدب وتهذيب، لا تنزلي رأسك
تحت المقعد ثانية وأنا أشرح الدرس.

نظرت إليها الطالبة بعيون زجاجية غير
مبالية كأنها لم تسمع شيئاً، وبعد دقائق أنزلت
رأسها ثانية تحت المقعد، خرجت خديجة عن
طورها واندفعت إليها، ثم شدتها من يدها
بقسوة نحو الخارج فانفلتت فردة حذائها من
قدمها وسقطت على الأرض أمام أعين
الطالبات، كانت مهترئة ملفوفة بقطعة من
المطاط التي تحول الصغيرة ربطها كل بضع
دقائق حتى لا يخرج من قدمها فردة الحذاء تلك

قصة

ملسيرة

للحزج

بقلم:

عبير كامل إسماعيل

كانت دليل براءة الطالبة من قلة الأدب
والتهذيب وطعنة لخديجة التي جفّ حلقها
فأخذت تبحث عن ريقٍ تبتلعه، وسبباً لارتفاع
أصوات الطالبات بالضحك، أفلتت يد الطالبة،
حاولت أن تعتذر لطفولتها جلست الطالبة بكل
هدوء وبالنظرة نفسها اللا مبالية سألت من
عينيها دموع صامتة لا تزال تنزّ في حلق
خديجة منذ الصباح.

الهتافات تعلو تارة وتنخفض تارة
أخرى، يقترب أحد المذيعين من المسؤول الذي
أنهكه المشي الذي لم يتعوده ويطلب منه أن
يوجه خطاباً لأطفال فلسطين، فيجيب بصوتٍ
لاهث وبعبارات محفوظة:

- الصمود لأطفالنا، والموت لإسرائيل،
هؤلاء الأطفال أقوى من الرصاص ولن تذّ لهم
أو تخيفهم بنادق العدو ونحن بقلوبنا وعقولنا
معهم..

كان خليل في الصف الذي يمشي
وراءه، استطاعت أذناه أن تلتقطاً نتفاً من
المحاضرة الوطنية الأخلاقية التي ألقاها
المسؤول أمام عدسات الكاميرات، أحسّ برغبة
بالإقياء أو البصاق أو أي عمل يعلن فيه قرفه
من الكلمات (النبيلة) التي تفوه بها هذا
المتبجح. تذكر هول مفاجأته وأصدقائه
المخبريين عندما حلّوا عينات من الحليب
المجفف الذي استورده المسؤول قبل أشهر
واكتشفوا أنها السبب بموت وإيذاء عديد من
الأطفال.

كان المسؤول لا يزال يتحدث
عن صمود أطفال فلسطين وعن وحشية

الصهاينة بينما خليل يحاور نفسه في صمت
كما اعتاد:

- ما الفرق بين طفل يقتله
الإسرائيليون بدم بارد وطفل يقتله مثل هذا بدم
فاسد، وبحركة هندسية أجابت عيناه على
السؤال حين كانتا ترسمان نجمة سداسية على
ظهر المسؤول المتحمس.

مرت المسيرة بجانب الحديقة العامة،
المتنفس الوحيد لأهالي المدينة وملتقى عشاقها
وعجائزها، منظر عاشقين يتناجيان أثار الشجن
في قلب السيدة حليلة، افتتت شفتاها عن
ابتسامة حنين وادعة، هنا قبل عشرين عاماً
كانا يلتقيان، كانت أشجار الحديقة تخضّر
أوراقها فينعقد زهر الحب بين قلوبهما، ليثمر
زواجاً لم يدم طويلاً، حين زفّوا لها خبر
استشهاده بسبب انفجار طائرته في مهمة
تدريبية يومها أخفت الحزن الذي اعتصر قلبها
وحاولت أن تفعل كما الأمهات اللواتي تسمع
عنهن.. زغردت طويلاً وانزوت جرار دموعها
في زوايا عينيها فكانت تسكبها على وسادة
لياليها القاتمة..

بقي لها من زواج دام خمس سنوات
ولدان وحفنة من الذكريات وجرح لا يعرف
الاندمال، من يومها انقلبت حياتها رأساً على
عقب فقد تبدلت نظرات الاحترام في عيون كل
من عرفتهم من أصدقاء إلى عيون جائعة
تعريها كلما التقت بأحدهم في أي شارع أو
دكان، ونظرات المحبة في عيون الصديقات
انقلبت إلى نظرات لؤم وغيرة ورقابة مما

دفعها للانقطاع عن زيارتهن أو حتى السلام على أزواجهن، غمغت حليلة:
- لا يعرف طعم الحزن ولا الظلم إلا من ذاقه.

لقد قتلوني منذ خمسة عشر عاماً، في الهند تحرق المرأة نفسها بالنار مع زوجها حين يقضي نحبه وهنا يقتلونهم معه بنار عيونهم ولهب أسننتهم.

سيوف كثيرة رفعت في وجهي من حينها: "لا تتبرجي، لا تلبسي الألوان الطفولية ولا ثياب المراهقين، لا تضحكي بصوت عال، لا تتأخري خارج المنزل".. أسوأ سجن ذلك الذي ليس له أسوار..

كل ذلك تحمّله بصبر على أمل أن يعوّض الأبناء بنجاحاتهم خسارة العمر المهدور، ومنذ سنتين تقدم ابنها إلى امتحان شهادة الثانوية العامة وكان يحتاج درجات قليلة لينتسب إلى الفرع الجامعي الذي يرغب فيه، فتقدم بمفاضلة تخص أبناء الشهداء، لكنه عندما ذهب هو وأمه لمعرفة النتيجة، فوجئوا بالموظف يقول ببرود:

- لا يحق له التقدم بهذه المفاضلة، فالوالد شهيد من الدرجة الثانية، وهو ليس شهيد حرب..

مادت الأرض تحت قدميها وانسكبت دماء زوجها التي حسبت خمسة عشر عاماً وانسكبت معها دموعها الخائبة، أخذت الأوراق شكرت الموظف على خدماته، قالت بصوت منكسر:

- كن شاهداً، اليوم مات زوجي..
اقتربت المسيرة من نهايتها والتهافتات لا تزال تمزق الأجواء بخناجر الغضب لكنها

تختنق على فم أحمد الذي خامره شعور بالغبن والألم عندما استعادت ذاكرته نظرات الشك التي يبادره بها الموظفون في كل مطار يدخل إليه بمجرد قراءة البيانات على جواز السفر فلسطينيته كانت تهمة، واسمه كان تهمة، وسيبقى للسببين ذاتهما مداناً إلى أن تثبت براءته.

كان أحمد قبل خمسة وعشرين عاماً يتدرب ليوجه البندقية إلى صدر عدو سلبه أرضه وليصبح شهيداً يلف بعلم بلاده واليوم تاهت بوصلة الأشياء، ولم يعد هناك شمال مغاطيسي يحتكم إليه، ترك أحمد النضال عندما لم يعد يعرف من العدو وإلى أي صدر يوجهه بندقيته، فاكتمى بالانزواء في بيت صغير في طرف المخيم يشاهد التلفاز ومناظر الأشلاء والقتلى المصروعين بكافة الأيدي ولعب الأطفال الممزقة ويسكر حتى البكاء لينسى ما يحدث، وليتناسى يديه المكتوفتين المكبلتين بآلاف القيود.

انتهت المسيرة، تفرق الناس وعادوا إلى أعمالهم، كان الهواء يحفظ الكثير من الأحاديث المختلفة تماماً عما هتفت به الألسن، والأرض غدت مكهربة بشحنات الغضب التي أفرغها المتظاهرون فيها، ورجعوا إلى بيوتهم أبطالاً بعد حرب كلامية ساحقة.

شخصاً وحيداً لم يكثرث للمسيرة التضامنية، ولم يرفع رأسه ليشاهد الناس أو يستمع لأصواتهم، فالأمر كله لا يعنيه ولا يهمه، إنه صبري ذو العشرة أعوام، والذي كان منشغلاً بمسح أحذية المارة وتلميعها بعناية.



حُبُّ قَدْرِهِ الرَّبِّ



شعر: زياد الجزائري

أَحْبَبْتُكَ فِي زَمَنِ الْيَأْسِ
الْمُتَرَاكِمِ فَوْقَ الدَّرْبِ
وَبَلَا تَخْطِيطٍ أَوْ قَصْدٍ
وَعَرَفْتُ بِأَنَّ طَرِيقِي صَعْبٌ
كُلُّ الْأَشْوَالِ تُطَوِّقُنِي
وَأَصِرُّ بِأَنَّ أَصْغِيَ لِلْقَلْبِ
إِذْ يُقْنِنُنِي أَنَّكَ قَدَرِي
وَيَقُولُ لِي اسْتَسْلِمِ لِلْحُبِّ
أَحْبَبْتُكَ رُغْمَ ظُرُوفٍ لَا تَمْنَحُنِي
إِحْسَاسًا إِلَّا بِالْكَرْبِ
فَحَيَاتِي أَشْأَبَهُ بِالصَّخْرَا
وَهَوَاكِ لِقَلْبِي مَاءٌ عَذْبٌ
أَحْبَبْتُكَ وَالْحُبَّ (حَشِيشٌ)
مَمْنُوعٌ وَالْعَاشِقُ فِي رُغْبِ
كَمْ يَكُنُّمُ فِي الصَّدْرِ حَيْنًا
وَيُؤَارِي حُرْقَتَهُ فِي جُوبِ





حُبًّا يَتَسَامَى كَصَلَاةٍ
وَتَسِيمٍ فَوْقَ الْوَرْدِ يَهْبُ
وَجَعَلْتُكَ مِصْبَاحِي لَيْلًا
وَرَأَيْتُكَ شَمْسِي عِنْدَ الْغُرْبِ
وَلَمَحْتُكَ مِنْ بَيْنِ غُيُومِي
قَمَرًا يَتَأَلَّقُ بَيْنَ السُّحُبِ
أَحَبُّتُكَ كَالنَّاسِكِ سَاحَرًا
يَبْتَهِلُ وَدَمَعُ الْمَآذَا يَضْبُ
لَمْ أَعْلَمْ أَطْهَرَ مِنْ حُبِّي
يَكْفِيْنِي مِنْكَ دَوَامُ الْقَرْبِ
أَهْرُبُ مِنْ وَحْشَةِ أَيَّامِي
مِنْ بَرْدٍ يَسْحَقُنِي فِي اللَّبِ
مِنْ جُوعِ رُوحِي مُر
كَمْ يُشْعِلُ بَيْنَ ضُلُوعِي حَرْبُ
لَتُبْتُ غُيُونِي مَا أَخْفِي
لِعُيُونٍ كَمْ تَخْتَزِنُ الْحُبُ
أَحَبُّتُكَ مِنْ دُونِ قَرَارِ
أَوْ تَضْرِيحٍ يُعْطَى لِلْقَلْبِ
وَبِرْغَمِي لَمْ أَخْتَرْ أَبَدًا
هَذَا أَمْرُ قُدْرَةِ الرَّبِّ



الدكتور

كاظم نجيب الداغستاني

١٨٩٨ - ١٩٨٥

بقلم:

يوسف عبد الأحد

أديب وباحث وروائي، ولد بدمشق من أب
داغستاني الأصل والمنشأ، وأم سورية.

تلقى دراسته الابتدائية في الكلية الشرقية
بزحلة لبنان ثم عاد إلى دمشق والتحق
بالتجهيز وتلقى علومه الثانوية، ثم في مدرسة
تغنايل الزراعية في البقاع بلبنان.

درس الحقوق في الجامعة السورية ونال
شهادة الليسانس عام ١٩٣٤ ثم سافر إلى
فرنسا والتحق بجامعة باريس عام ١٩٢٨ ونال
شهادة الدبلوم في الدروس العليا، ثم درس علم
الاجتماع ونال شهادة الدكتوراه في العلوم
الاجتماعية عام ١٩٣٢ برتبة مشرف جداً
وكان عنوان أطروحته بالفرنسية حول (العائلة
المسلمة/ المعاصرة في سوريا) وقد نالت
إعجاب الهيئة الفاحصة وطبعها طباعة فاخرة
وتعتبر من أهم المراجع لطلاب علم الاجتماع.

قبل سفره إلى فرنسا عمل كاتباً في
الديوان ثم مفتشاً في ديوان مجلس الوزراء
عندما تألقت أول حكومة عربية في سورية عام
١٩٢٠.

عاد من باريس وعين قائمقام في معرة
النعمان عام ١٩٨٣ وخلال عمله أدخل
الكهرباء إلى المعرة لأول مرة وجدّد ضريح
أبي العلاء المعري واستمر في عمله حتى عام
١٩٤٠.

وفي عام ١٩٣٣ أسس مع الأدباء خليل
مردم بك (١٨٩٥ - ١٩٥٩) وجميل صليبا
(١٩٢٠ - ١٩٧٦) وكامل عياد (١٩٠١ -
١٩٨٦) مجلة الثقافة وصدر العدد الأول منها

في ٥ نيسان ١٩٣٣ وتوفقت في ١٥ حزيران ١٩٣٤ وصدر منها عشرة أعداد وقامت وزارة الثقافة مؤخراً بإعادة طبعها في مجلد واحد.

تزوج عام ١٩٣٥ من السيدة إنعام عزة العظم ورزق منها ولداً واحداً عام ١٩٤٠ هو الدكتور نجيب الداغستاني.

وفي عام ١٩٤٢ عين محافظاً بالوكالة في حوران ثم أعيد إلى دمشق وعين مفتشاً إدارياً في وزارة الداخلية عام ١٩٤١.

أوفد إلى مصر لتمثيل سورية في لجنة الجنسيات والجوازات في الجامعة العربية عام ١٩٤٦.

أحيل على التقاعد عام ١٩٥٢ بناءً على طلبه. وعمل بالمحاماة اثنتي عشرة سنة ثم انصرف إلى هوايته في الكتابة والأدب وبدأ بنشر مقالاته في مجلة الميزان التي أصدرها أحمد شاكر الكرمي ثم في مجلات المعرفة وجيش الشعب والمحامون والموقف الأدبي.

صدر كتابه الأول (عاشها كلها) عن دار الأندلس في بيروت عام ١٩٦٩ الذي أرّخ فيه لذكرياته وأحداث حياته ونال هذا الكتاب إعجاب طائفة من الأدباء منهم شفيق جبري وسامي الكيالي وسلمى الحفار الكزبري وعيسى فتوح ومها العطار وجمال الفرا وشاكر مصطفى.

قال عبد المعين الملوحي عنه:

"إن أقل ما يقال في هذا الكتاب إنه حبّ إلينا الحياة وتمنينا أن نعيشها كلها كما عاشها كلها".

أما كتابه الثاني (حكاية البيت الشامي الكبير) فقد صدر بدمشق عام ١٩٧٢ على نفقته وقد أثار هذا الكتاب ضجة وتعليقات متعددة وهو يمثل صورة حية لحياة أسرة مترفة إقطاعية كما صور فيه الحياة الدمشقية المختلفة وبرهن على حبه لدمشق وتعلقه العميق بها.

أحبّ كاظم الداغستاني اللغة العربية وتعمّق في دراستها وساعده على ذلك صديقه الشاعر خير الدين الزركلي كذلك كانت تربطه صداقة حميمة بالأدباء خليل مردم بك وجميل صليبا وكامل عياد.

كان يدعو إلى إعطاء المرأة حريتها وحقوقها وتحريرها من القيود العقيمة.

تجدر الإشارة إلى أنه حثّ ابنة اخته الأدبية إلفة الإدلبي وشجعها على المطالعة والكتابة فتابعت المسيرة وأصبحت من الأدبيات المرموقات.

وافته المنية في السادس والعشرين من أيلول ١٩٨٥ ودفن في دمشق.

مؤلفاته

- ١- الأسرة المسلمة المعاصرة في سورية - بالفرنسية - أطروحة نال بها شهادة الدكتوراه عام ١٩٣٣ من فرنسا.
- ٢- عاشها كلها - بيروت - دار الأندلس ١٩٦٩.
- ٣- حكاية البيت الشامي الكبير - دمشق - مطبعة ألف باء ١٩٧٢.

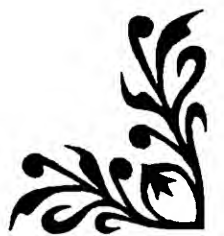


الحبيب الثاني..



شعر: حسن عدنان قداح

سل كل واحدة أنستُ بודהا
أسميتها حب الحبيب الأول
ونزعت من كبدي إليها قطعة
كي تستدل بطعم ما لم يؤكل
قسّمت قلبي للجمال منازل
فاخترت حبيبي أي بيت وانزل
أجرت قلبي للذين أحبههم
لم يملكوه كأنه لم يؤهل
مستأجر أرمي به لو خاني
سهل النوى ممن تملك منزلي
فإذا نزلت بمنزل سكّانه
أهل الجفاء وكان أول منزل
ستظل نعمة ربنا نسيانه
وطموح نفسك لو رزقت بأفضل
مادمت أهواه سيبقى أولاً
حتى إذا قطع الوصال بمنجل
رقماً سيمسي بعد ألف نائياً
ألقي به وكأنه لم يوصل
نقل فؤادك حيث شئت ولا تخف
واترك فؤادك للحبيب المقبل
لو لم يكن ثنى وثلاث في الهوى
لا لم يقل كان الهوى للأول



خلبت الأحلام لب الإنسان في كل العصور، وحاول كل علم من العلوم، وكل عالم من العلماء تفسير وتحليل هذه الأخيصة والصور، التي ما إن ننام حتى تقفز إلى مسرح النفس معبرة عن نفسها، إلا أنها بدت متناقضة ومضطربة، ويشوبها الغموض والإبهام، ولا رابط يربطها ولا جامع ينسجها في كل موحد ومتناسق، تحقق لها التناغم والاتساجام، إلى أن جاءت العصور الحاضر فبدأ العلماء يدركون الكثير من هذه الظاهرة الملغزة، وبرغم الجهود العظيمة المبذولة لدراسة هذه الظاهرة الهامة، وتوصل العديد من العلماء والباحثين إلى بعض مفاتيح حل لغز الحلم، إلا أنهم، بوسائلهم الحديثة، وأدواتهم الدقيقة، ومناهجهم المضبوطة، لا يزيدون عما قدمه منذ أكثر من أربع عشر قرناً، في القرآن الكريم، يوسف عليه السلام، في سورة يوسف (ع)، حول ما سماه القرآن الكريم "تأويل الأحاديث" تارة، وتعبير "الرؤيا" تارة أخرى، كيف..؟ لنرى ذلك.. إن كل الآيات الواردة لاحقاً، فهي من سورة يوسف ولتفسير الألفاظ الصعبة استعنا بتفسير الجلالين.

قال تعالى: "إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين"

إذا يرى يوسف (ع) هذا الحلم، ويطلب من أبيه يعقوب (ع) أن يفسر له مضمون هذا الحلم، وقد أدرك الأب معنى هذا الحلم، ولكنه يجيبه: "قال يا بني لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين" وتنطوي هذه

يوسف عليه السلام..

مفسر

للأحلام

بقلم الدكتور:
مصطفى العدوي

الإجابة على أن الأب فهم مغزى ومحتوى الحلم، لذا سارع لتحذيره من مغبة سرده على إخوته، فهل معنى ذلك أن الجميع من يوسف (ع) وأبيه يعقوب (ع) وأبنائه يدركون ما يذهب إليه هذا المنام. هذا على الأقل ما يبدو من سياق المحاور، "وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث.."

فيورد تفسير الجلالين: "يختارك ربك ويعلمك تعبیر وتفسير الرؤيا" وهنا تؤكد الآية بأن الله سبحانه وتعالى علم يوسف (ع) واختاره وميزه ليكون الأفضل في تفسير الأحلام وتحليل الرؤى وفهم مقاصد الحديث، وإدراك خفايا الأمور.

"لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين" ويشرح التفسير "لقد كان في خبر يوسف وإخوته أحد عشر من العبر" ولكن مضمون حلم يوسف (ع) قد اتضح الآن، بعد أن علمنا أن له أحد عشر أخاً وهم اللذين ظهروا في حلمه بالكواكب الأحد عشر، ولم يبق أمامنا إلا أن نفسر رمزي الشمس والقمر، وهما الأب والأم على التوالي، فيصبح جوهر الحلم أنه في يوم من الأيام سينال يوسف (ع) مكانة ومجداً رفيعاً بحيث أنه حتى أهله سيحتاجون إليه حاجة ماسة، وسوف يقدمون له الطاعة والاحترام والسجود.

"ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إن نراك من المحسنين".

ويقول التفسير: والفتيان هما غلامان للملك أحدهما ساقيه والآخر صاحب طعامه،

فرأياه يعبر الرؤيا فقالا لنخبرنه بتأويل (أحلامنا) بتعبيره (أي بتفسيره)، والمقصود أنه علم في بيان مقاصد الأحلام.

"قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما.." أي يوسف (ع) لهما مخبراً أنه عالم بتعبير الرؤيا في منامهما قبل أن يأتيهما صحته في اليقظة، "يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان". وهذا هو تحليل وتفسير أحلامكما وما سوف تصيران إليه، فيما إذا اصدقتماني القول، أما الساقى فيخرج بعد ثلاث ماذا...! ربما كانت ثلاث سنوات، فيسقي سيده (ملكه) خمراً على عادته، وأما الآخر فيخرج بعد ثلاث سنوات أيضاً، فتأكل الطير من رأسه بعد أن يعاقب بالصلب، وطلب يوسف (ع) من الذي أيقن بالنجاة أن يذكره عند سيده (الملك) عندما يحين موعد خروجه من السجن، وعندما أفرج عن هذا الأخير أنساه الشيطان ذكر يوسف (ع) عند مولاه، فمكث في السجن بضع سنين (قيل سبعا وقيل اثنتي عشرة سنة).

"وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملاء أفتوني من رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون".

والملك هو ملك مصر الريان بن الوليد الذي رأى (حلم) البقرات السبع السمان يبتلعن البقرات السبع العجاف وسبع سنبلات خضر وأخر سبع سنبلات يابسات قد التوت على الخضر وعلت عليها.

وبدا أن الملك مأخوذاً بهذه الرؤيا (المنام) فطفق يستشير المأ من حاشيته تفسير هذه الرؤى..؟

ولكنهم أجابوا: إن هي إلا أضغاث (أخلاق) أحلام، وما هم بتأويل الأحلام بعالمين. حينئذ تذكر الساقى من بين جموع الحاشية، فأخبر الملك بقدرة يوسف (ع) تأويل الأحاديث، فأرسله الملك إليه في السجن ليفسر حلمه فأجاب: "قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون". ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون" ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون".

والتفسير أو التأويل الواضح الذي قدمه يوسف (ع) لرسول الملك وهو: أن ازرعوا سبع سنين دأباً متتابعة وهي رمز السبع السمان، فما حصدتم فذروه أي اتركوه في سنبله لئلا يفسد إلا قليلاً مما تأكلون فادرسوه.

ثم يأتي بعد ذلك السبع المجذبات، عام فيه يغاث الناس بالمطر وفيه يعصرون الأعناب وغيرها الخصبة.

ولعله قد اتضح هنا محتوى رؤية (حلم الملك) المصري المتوقد خوفاً وخشية على مواسم أرضه، وتعاقب فترات الجذب والخصب مما يثير القلق على مستقبل بلاده.

أما البقرات السبع العجاف فتمثل سبع من سنوات القحط، والسبع بقرات السمان ترمز إلى سبع سنوات من الغلال والخصوبة.

ولتحليل وتأويل هذا الحلم احتوى على إشارات رمزية قدمت فيما بين صور البقرات، وهي السنابل الخضر واليابسات لتحدث تكرار الرمزية، وتبين سبل فك شفرات الحلم، تلك المتضمنة عبر مجموعة من مفاتيح الحل لهذا الحلم. ويتم ذلك من خلال استبدال الصور الحلمية المرمزة لما تهدف إليه من معنى أو قصد أو غاية. ولعل أغلب المشتغلين بالحقل السيكولوجي على دراية بهذه الآلية النفسية.

ومن هذا المنطلق يتجلى إعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الحقائق السيكولوجية والقوانين النفسية العميقة التي يجاهد علماء النفس ويكابدون العنت في اكتشافها وإظهارها للناس. إذ بها مناسبة برشاقة فائقة، بلفظ معجز، ومعنى موجز، وتأويل ملغز. تنثال انثيالاً، بجرس صداد وزند قداح، بطلاوة وحلاوة لا مثيل لها من قول بشر.

والآن ومع أحدث التطورات في العلوم السيكولوجية، لو أخذنا هذا الحلم المذكور آنفاً وطلبنا من أعظم عباقرة علم النفس تأويله، لما أولوه بأفضل مما فعل يوسف (ع).

ويشهد فرويد بنفسه، مؤلف "تفسير الأحلام" هذه الحلية النفسية عام ١٩٠٠ على ذلك، وكان فرويد يتمنى دائماً أن يصل إلى قدرة يوسف (ع) في تأويل الأحلام والرؤى والأحاديث، ويضطرب زهواً عندما يصفه تلاميذه بأنه يحاول التشبه بيوسف (ع) في هذا الإطار، وستبقى ظاهرة الأحلام معقدة حتى يقبض الله لها نفر من العلماء الراسخين اللذين يناط بهم دفع عجلة العلم والتقدم نحو السمو المعرفي والازدهار الحضاري.

طالعوا صباح كل سبت

الأسبوعية

الثقافة

مجلة فكرية جامعة تصدر في دمشق

السعر (٣٠) ل.س

مؤسسها ورئيس تحريرها

مهاجرة عكاش